

الأستاذ : بن زيان خالد.

التخصص : السنة أولى ماستر وعلوم القرآن.

المقياس: القرآن في الدراسات الإستشراقية.

المحاضرة الأولى:

تعريف الإستشراق ودوافعه.

لعل من أهم ما بحثه المستشرقون في الدراسات القرآنية هو موضوع: تأريخ القرآن في عدة مؤشرات من ذلك؛ اشتملت في الغالب على الحديث عن نزوله، وأدواره، وبنيته، وتركيبه، وقراءاته، ولهجاته، وتدوينه، وكتابه.

إلا أن هذه الدراسات جاءت متأخرة بعض الشيء بالنسبة لما كتبه العلماء العرب والمسلمون في تأريخ القرآن سبقاً منهم إلى هذا الميدان، ولعل من أبرز من أشار لذلك «أبا عبدالله الزنجاني» في كتابه: (تأريخ القرآن)^(١).

١ - لقد عني المستشرقون بتأريخ القرآن، وكانت عنايتهم مطردة ابتداءً من أوائل القرن التاسع عشر إلى المنتصف الثاني من القرن العشرين، فقد خصص المستشرق الفرنسي بوتيه (١٨٠٠ م - ١٨٨٣ م) وقتاً كبيراً لدراسة تأريخ القرآن الكريم، فعكف على ذلك وبحث تأثره بما تقدمه من ديانات وظروف أحاطت بنزوله وغايته، والعقائد الموافقة والمضادة له في غيره من الأديان، وتأثيره في الاجتماع والتمرين، ثم الأشهر والجمع التي يقدسها، والمذاهب التي نشأت عنه لدى المسلمين، وقد نشرت دراسته هذه في باريس عام (١٨٤٠ م)^(٢).

وكما يبدو من الشؤون التي أثارها هذا الكتاب أن بحثه لم يكن متكاملًا بموضوعاته، ولا دقيقاً باختياره.

(١) طبع في القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٣٥ م، وقدم له الدكتور أحمد أمين.

(٢) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ١٩٤.

٢ - حتى إذا جاء المستشرق الألماني جوستاف فايل (١٨٠٨ م - ١٨٨٩ م) وجدنا الحال مختلفة فيما كتبه في رسالته: «مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن»، إذ امتازت بحوثة بشمولية الموضوع، ومعرفة المنهج التاريخي، وإن كان لا يخلو من الثقافة التلمودية، لأن الكاتب من أصل يهودي، وقد قسّم فيه السور المكية لأول مرة إلى ثلاث مجموعات، تقسيماً أخذ عنه (نولدكه) فيما بعد^(١). ولعل من أطرف ما جاء به (فايل): في هذه الدراسة: ذهابه إلى أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، وأن القرآن يشير إلى ذلك، ولكنه أخفق في الاستدلال المقنع في الموضوع^(٢).

٣ - وجاء المستشرق الألماني الأستاذ (نولدكه) (١٨٣٦ م - ١٩٣٠ م) ففتح لنا عمقاً جديداً في الدراسات التاريخية للقرآن، وكتابه: (تاريخ القرآن)، هو الذي فتح هذا العمق الجديد، وكان رسالته للدكتوراه واسمه (أصل وتركيب سور القرآن) جوتنجن (١٨٥٦ م).

أ - ولما نمي إليه أن مجمع الكتابات والآداب في باريس قد وضع جائزة للتصنيف في موضوعه قصد (جوتنجن وبرلين) وغيرهما في طلب المزيد من المصادر لرسالته، وتوسع فيها ونال جائزة المجمع عليها سنة (١٨٥٨ م)، ثم أعاد النظر فيها وترجمها إلى الألمانية ونشرها بعنوان: (تاريخ النص القرآني) جوتنجن (١٨٦٠ م).

ب - وقد جدد طبع هذا الكتاب «شوللي» بعد تحقيقه والتعليق عليه، ونشر في مجلدين، ليزيج، (١٩٠٩ م / ١٩١٩ م).

ج - ونشر «براجشتراسد وبرتسل» الجزء الثالث منه في ليزيج (١٩٢٦ م / ١٩٣٥ م)^(٣).

د - وقد عالج فيه بمنهجه العلمي الدقيق مشكلة تاريخ السور والآيات فجاء كتابه هذا أساساً مهماً لكل بحث في هذا الموضوع، وقد أعيد طبع

(١) ظ: رودى بارت، المرجع السابق: ٢١.

(٢) ظ: د. عبد الصبور شاهين:

تاريخ القرآن: ٤٩ وما بعدها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٦ م.

(٣) ظ: نجيب العقيقي، المرجع السابق: ٧٣٨ وما بعدها.

هذا الكتاب على يد «براجشتراسر» وغيره بعد تنقيحه واستكماله»^(١).

هـ - وقد عدّه «دودي بارت» من أهمّ كتب (نولدكه) على الإطلاق حتى أصبح منذ زمن طويل كتاباً أساسياً من كتب هذا الفرع من التخصص، فقد حدد الكتاب سور القرآن بفتراتها المكية والمدنية، وأوضح ميزات كل مجموعة من مجموعات السور من ناحية الأسلوب والمضمون تحديداً ممتازاً.

و - ويعطي المجلد الثاني من الكتاب كلّ ما يتطلبه الباحث من مؤلف علمي بهذا الحجم في موضوع جمع القرآن والمسائل المتصلة بذلك، وينطبق هذا الكلام أيضاً على المجلد الثالث الذي يعالج تأريخ النص القرآني... ويكتمل هذا الكتاب بتكملة قيّمة من إنشاء (نولدكه) هي دراسته في لغة القرآن، التي نشرت في مجموعة مقالات جديدة عن علم اللغات السامية (١٩١٠ م) والتي تضم الأجزاء التالية:

القرآن والعربية، وخصائص أسلوبية، وخصائص تكوين الجمل في لغة القرآن، وكلمات أجنبية مستعملة عن عمد وغير عمد في القرآن^(٢).

ز - ويرى الأستاذ «بلاشير» أنه: بفضل «نولدكه» ومدرسته أصبح ممكناً من الآن فصاعداً أن نوضح للقارئ غير المطلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بتوعيته، وليتخطى القلق الذي ينتابه في اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض^(٣).

ح - ومع الجهد الكبير الذي بذله «نولدكه» في تأريخ القرآن إلا أننا نجد موقفه أحياناً غريباً ومتناقضاً، ففي الوقت الذي يعقد فيه بكتابه فصلاً بعنوان: (الوحي الذي نزل على محمد ولم يحفظ في القرآن) والذي يبدو فيه قائلاً بالتحريف تلميحاً، نجده يصرح بذلك في مادة قرآن فيقول بدائرة

(١) ألبرت ديتريش، الدراسات العربية في ألمانيا: ١٤.

(٢) ظ: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ٢٧.

(٣) ظ: البروفسور بلاشير:

القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره: ٢١.

ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤ م.

المعارف الإسلامية: «أنه مما لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن ضاعت» ويثني على هذا الموضوع الخطر في دائرة المعارف البريطانية، مادة قرآن فيقول: «إن القرآن غير كامل الأجزاء»^(١).

وهذا خلط عجيب لا يقوم على صحته دليل، وهو غريب الصدور من هذا العالم الجليل، وسناقش هذا الموضوع فيما بعد عند عرض آراء الأستاذ بول فيه.

ط - وحينما ظهر كتاب المستشرق الألماني «فوللرز» عن لغة الكتابة واللغة الشعبية عند العرب القدماء، أثار نقاشاً حاداً، فقد زعم «فوللرز» في كتابه هذا أن القرآن الكريم قد ألف بلهجة قريش وأنه قد عدل وهذب حسب أصول اللغة الفصحى في عصر ازدهار الحضارة العربية، وقد انبرى (نولدكه) للرد عليه موضحاً أن كلامه عار من الصحة والتحقيق العلميين^(٢).

لقد فتح (نولدكه) الطريق أمام القول بتحريف القرآن، ثم بدا مدافعاً عنه مما بدا فيه متناقضاً بين السلب والإيجاب في الموضوع.

ي - وفي الوقت الذي يعجب فيه بسحر القرآن البلاغي، وإعجازه البياني، نراه في بحثه عن القرآن وأسلوبه في دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ قرآن - والذي يعالج فيه عدة موضوعات من القرآن معالجة تتسم بالدقة حيناً، وبالتجني حيناً آخر - يغمز أسلوب القرآن الكريم باعتباره أسلوباً قصصياً ينقصه التسلسل في طريقة الأخبار والسير، ويرى في قصصه انقطاعاً حتى ليصعب فهمها على من لم يطلع عليها في مصدر آخر. وانتقد في القرآن الكريم تكرير بعض الألفاظ أو العبارات تكريراً لا مسوغ له في رأيه!!!

وأشار إلى كثرة انتقال القرآن في خطابه من صيغة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، فمن غيبة إلى خطاب، ومن ظاهر إلى مضمّر وبالعكس، واعتبر ذلك مجالاً للتجريح، وأن رأي كل عالم أوروبي في القرآن بعد

(١) ظ: عبد الوهاب حمودة.

القراءات واللهجات: ٧٧، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٨ م.

(٢) ظ: ألبرت ديتريش، المرجع السابق: ١٣.

الإمعان والتصفح بروح الإنصاف، يأخذ عليه هذه الثغرات، أما المتمسكون من أهل الإسلام فينكرون هذا الكلام ويرمون صاحبه بالالحداد^(١).

ك - والحق أن (نولدكه) قد تطرق كثيراً في هذه الوجوه التي عرضها، ومرده في هذا - مع حسن الظن - إلى عدم تمرسه في ضروب البلاغة العربية التي لا يدرك أبعادها إلا العرب الأقحاح، ولعل في آرائه مزيجاً بين الهراء والدس الذي لا يحمد عليه عالم مثله، ومتى كان العالم جانبياً في التفكير، أو هامشياً في التعليق، أو سطحيّاً في الاستنتاج، أخذت عليه هذه المآخذ الفجة.

ل - وقد تكفل الأستاذ أنيس المقدسي بالرد عليه فذهب أنه: «لا يجوز مقابلة هذا الأسلوب بأسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما. ففي التوراة عدا أسفار الأنبياء والأمثال والأناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري الأخبار مجراها الواضح العادي أما القرآن فإنه يشير إلى الحوادث التاريخية، بوثبات أو بحملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر، بل يقصد بها إلى التذكير والتهويل. ولذلك ترد مراراً بحسب ما يقتضيه الكلام، وكثيراً ما تروى عن سبيل الإشارة والتلميح، والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف...»^(٢).

٤ - وقد تصدى بعض المستشرقين - بعد نولدكه - إلى دراسة جزء معين من تاريخ القرآن الكريم، فهناك بحث للمستشرق الانكليزي (أدوارس) أسماه: (التطور التاريخي للقرآن) صدر في مدارس عام (١٨٩٨ م) بحث به النزول المكي والمدني والتدوين والكتابة ولكنه جاء مختصراً لا يفي بالغرض.

٥ - وقد عرض لجزء من هذا التاريخ المستشرق المجري جولدتسهير (١٨٥٠ م - ١٩٢١ م) في اقتضاب من مذاهب التفسير الإسلامي ولعل أبرز ما عنده إثارته لبعض المآخذ التي يمكن تلخيصها بما يلي:

(١) ظ: نولدكه، مادة قرآن في:

Ency. Brit. Edition, 11.

(٢) أنيس المقدسي:

تطور الأساليب الثرية في الأدب العربي: ٦١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥ م.

أ - إيراد الاختلاف في القراءات واعتقاده بأن ذلك كان عن هوى من القراء لا عن توقيف ورواية.

ب - تحميله القراءة ما لا تحتمل من المعاني والآراء من أجل إثبات أنها محض آراء لا نقل نصوص كما هو الحال في الآيتين الثامنة والتاسعة من سورة الفتح.

ج - تشكيكه في الزيادات الشارحة لنصوص القرآن هل هي من القرآن أو زيادة في تفسيره؟

د - ذهابه إلى أنه وجد بعض القراءات المتناقضة في المعنى، والمختلفة في التأويل مما لا يمكن أن يجمع بينها، واعتباره ذلك مخالفاً جوهرية.

هـ - ذهابه إلى أن بعض الاختلاف في القراءات مرجعه إلى الخوف من أن تنسب إلى الله ورسوله ﷺ عبارات قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجهة النظر الخاصة، ما يمس الذات الإلهية العالية أو الرسول^(١).

إن ما أثاره (جولدتسهير) عبارة عن فرضيات يصعب الاستدلال عليها، ومحض اجتهادات بل تصورات، تتنافى مع طبيعة البحث الموضوعي، وتحمل القضايا أكثر من وقائعها، وقد تكفل الأستاذ (عبد الوهاب حمودة) بالرد على هذه الآراء المشتتة^(٢).

٦ - وقد عرض المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) (١٨٦٨ م - ١٩٥٦ م) لتأريخ القرآن في الفصل الثاني من الباب الثاني من تأريخ الأدب العربي، وقد خصص هذا الفصل الموجز له، فعرض للوحي، وجمل القرآن المؤثرة، وأخطأ باعتباره القرآن يأخذ طابع سجع الكهان^(٣).

(١) ظ: جولدتسهير:

مذاهب التفسير: ٨ - ٢٠، ترجمة: د. علي حسن عبد القادر.

(٢) ظ: عبد الوهاب حمودة:

القراءات واللهجات، الفصل العاشر: ١٨٢ - ٢١٣.

(٣) كارل بروكلمان:

تأريخ الأدب العربي: ١/١٣٧. ترجمة د. عبد الحلیم النجار، دار المعارف، القاهرة،

١٩٦٨ م.

وكان مولر قد ذهب إلى أن القرآن من القوالب الشعرية، وقد أيد ذلك (جاير) إلا أن (نولدكه) قد رفض ذلك وأيده (بروكلمان) في هذا الرفض^(١).

وذهب - كما رجح تور أندريه - (٣٢) أن أسلوب النبي محمد ﷺ قد تأثر بموعظة التبشير المسيحي على لسان المبشرين العرب من جنوب الجزيرة. ولا يقوم على صحة هذه الدعوى أثر من القرآن، أو لمح من التأريخ، وكذلك ما ادعاه من وضوح التأثير النصراني في لغة النبي ﷺ باطراد^(٢).

ولعل من المفيد عرضه لرفض لاجارد لاشتقاق كلمة: سورة، من العبرية الحديثة، بينما دافع عن ذلك (نولدكه)، وتشكك فيه (شفلي وبول) الذي ذهب إلى أن اللفظ عربي أصيل^(٣).

وتحدث (بروكلمان) بإيجاز عن التقسيم المكي والمدني وسيماء كل منهما، وذهب إلى أن نجومًا متفرقة من الوحي كانت قد كتبت في حياة الرسول الأعظم ﷺ^(٤).

ووثق المصحف العثماني، وذهب إلى أن الكتابة فتحت مجالاً لبعض الاختلاف في القراءة... فاشتغل القراء على هذا الأساس بتصحيح القراءات^(٥).

٧ - وتكاد أن تختتم الدراسة الرصينة لتأريخ القرآن بما كتبه المستشرق الفرنسي (ريجيس بلاشير) المولود (١٩٠٠ م) في كتابه القرآن، المكوّن من سبعة فصول، اختصت أربعة منها في تأريخ القرآن على النحو التالي:

(١) بروكلمان، المرجع نفسه: ١/١٣٧.

(٢) ط: Tor Andrae, Der ursprung des Islams 139 FF.

(٣) بروكلمان، المرجع السابق: ١/١٣٨.

(٤) المرجع نفسه: ٨/١٣٨ + دائرة المعارف الإسلامية الألمانية: ٤/٦٠٦ - ٦٠٨.

(٥) بروكلمان، تأريخ الأدب العربي: ١/١٣٩.

الفصل الأول: المصحف بنيته وتكوينه.

الفصل الثاني: الرسالة القرآنية في مكة.

الفصل الثالث: رسالة القرآن في المدينة.

الفصل الرابع: الواقعة القرآنية وعلوم القرآن^(١).

وقد عالج بلاشير في الفصل الأول النقاط التالية:

أ - الأصل اللغوي لكلمة القرآن، التي ربما تكون مأخوذة عن السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جداً لها في المعنى.

ب - فكرة التدوين القرآني ومرورها بثلاث مراحل: الأولى بعد إقامة النبي ﷺ في المدينة، والثانية تبتدىء مع وفاة النبي ﷺ. والثالثة بعد مقتل الإمام علي عليه السلام.

ولعل من المرجح بل المؤكد أن التدوين بدأ مع القرآن في مكة عند نزوله مباشرة.

ج - تلويحه أن في القرآن تحريفاً لا بالمعنى الدقيق، يُعزى إلى الشيعة والخوارج، وأن هذه الفرضية التي ساقها راجت عندهما، ثم ينفي عن الامامية هذه التهمة لأنهم يعملون بالنص العثماني للقرآن.

وسنعالج هذه القضية فيما بعد عند موضعها من تأريخ القرآن.

د - يعرض تأريخياً إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء والأجزاء إلى سور، وتتابع السور بكون ذلك التنظيم توقيفياً، وما تتميز به هذه الحلقات من تحذير وإنذار وقصص عذاب الغابرين.

هـ - ويصور حيرة القارئ غير العربي وموقفه السلبي من القرآن لأنه يأس من فهم القرآن، ثم يقترح لذلك بتجزئة القرآن في القراءة والتحليل، لا أن يقرأ نصاً متكاملاً فيتعذر فهمه وتحليله^(٢).

(١) المرجع نفسه: ١/١٤٠.

(٢) ظ: بلاشير: القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره: ٢٣ - ١٠٦.

ويبدو لي أن (بلاشير) في هذا الفصل قد اتكأ اتكأء ملحوظاً على آراء (نولدكه) في الكتابة عن تأريخ النص القرآني لا سيما في ترجيحه في النهاية إلى مقترحاته بالتقيد بالمراحل الزمنية.

ويبحث (بلاشير) في الفصل الثاني:

أ - الرسالة القرآنية في مكة في تأكيدها على الانذار الإلهي وقيام الساعة وتصور الحساب الأخير، والتذكير بالملذات الفردوسية، بما يعتبر بحثاً رائعاً فيما وراء الغيب.

ب - التصريح بسمو المهمة التي كُلف بها الرسول الأعظم ﷺ، في الحض على التوبة، وإدانة الأغنياء، والأمر بالصدقة، بما يعتبر الجانب الإصلاحية للحياة الاجتماعية في القرآن.

ج - الخلوص إلى أن فترة هذه الدعوة في مكة تتمثل باثنتين وعشرين سورة تبتدىء بسورة الكهف وتنتهي بسورة النجم، وهي نصوص موسعة ومختلفة العناصر^(١).

ويتناول (بلاشير) في الفصل الثالث رسالة القرآن في المدينة على الشكل التالي:

أ - يعتبر الهجرة النبوية قد أحدثت تحوُّلاً أساسياً في حياة المسلمين بكون الإسلام قد تأطر اجتماعياً ودينياً بشريعة جديدة مرتبطة بوحى القرآن.

ب - تلقي النبي ﷺ في القرآن التوجيهات السديدة من السماء والتي تمكنه من مجابهة الصعوبات أيا كان نوعها.

ج - إبراز تحذير المؤمنين وتهديد المشركين في الآيات المدنية، وإن كانت الأفضلية فيها لموضوعات أخرى تتعلق بالحياة السياسية والمسائل والنزاع المسلح، بالإضافة إلى ما في المصحف من إيراد تهكم اليهود بالمؤمنين.

د - عرض موقف الإسلام الفني من الطوائف المسيحية في جنوب

(١) يبدأ الفصل الأول من: ١١ إلى ١٩.

الجزيرة العربية التي بقيت على علاقات متواصلة مع النبي ﷺ، ولكن القرآن يشجب طريقة التثليث مراراً، بينما يستميلهم من جهة أخرى.

وقد عرض (بلاشير) هذا الموضوع عرضاً جيداً يقف به عند مقاومة النبي ﷺ للعالم البيزنطي خاصة يوم سقوط مؤتة، وهو الوقت الذي تساوى به النصارى واليهود في لعنة واحدة.

هـ - تحديد مسؤوليات الرسول الأعظم ﷺ باعتباره زعيماً دينياً، مع ما هو موجود من المشاكل التي أثرت مع الوثنيين وأهل البدو.

و - ويختتم هذا الفصل بما لمس من السور المدنية من طرح لاستبدال النظام القبلي بنظام جديد، كما طرحت التحديدات الجديدة بالعبادة والمحرمات الجنسية والغذائية، والأحلاف، وبعض فروض الكفاية^(١).

إن معالجة (بلاشير) لتأريخ المرحلة الإسلامية في المدينة من خلال القرآن تكاد تكون جيدة جداً بغرضها الموجز، وكثافتها التاريخية، وتحديدها لأبرز النقاط الرئيسية التي مر بها النبي والقرآن معاً.

وفي الفصل الرابع عرض (بلاشير) للواقعة القرآنية وأثرها في تكوين علوم القرآن بالشكل التالي:

أ - إن جميع التبليغات التي تلقاها محمد ﷺ صادرة من الله ذاته، وأن الله كان قد ثبتها في لوح محفوظ.

ب - إن كتابة القرآن بلغة أهل مكة - باعتبار النبي ﷺ مكياً - وإن مشكلة النموذج اللغوي المفهوم في شبه الجزيرة العربية قد طرحت لاهوتياً، وقد عاد هذا النموذج موضوعاً للدراسة فأنشئت في ضوئه قواعد النحو.

ج - بحث موضوع الرسم القرآني في الكتابة، وتكوين مفردات هذه الكتابة من حروف أربعة أو خمسة، بعضها صامت غير معلم، إلا أن استظهار النص القرآني قد ستر هذه النواقص كما يدعي.

(١) يبدأ الفصل الثاني من: ٢٠ إلى: ٣٥.

د - عرض لمدرسة القراءة ودور الواقعة القرآنية في تفتح النظريات النحوية، وتأليف الدراسات في اللغة وتأريخها، وطرح مسألة تعدد القراءات، وأشار إلى مدرستي الكوفة والبصرة، وقد اعتبر ذلك باعثاً قوياً على ازدهار الدراسات النحوية والمعجمية.

هـ - اعتبر علم البيان العربي منطلقاً من القرآن، وركز في الموضوع على الاعجاز القرآني، وقناعة علماء البيان بأن القرآن يحتوي على جميع المواد الضرورية لهذا العلم، مما شكل حالة حضارية زيادة على الجانب الأساسي وهو تكوين الشريعة^(١).

إن الآراء التي أثارها بلاشير في الفصل الرابع قد عمدت إلى كشف الآثار الحضارية، والقيمة التراثية، والمناخ الأدبي للقرآن، في تأسيس المدارس اللغوية، وشحذ الفكر البلاغي، وخلق القوة التعبيرية في البيان العربي.

ومما تقدم يبدو لنا أثر المستشرقين في دراسة تأريخ القرآن، فالصيغة العلمية هي الطابع العام لها، والهوى قد يصاحب بعض الأقلام. وقد عرضنا الجزء المهم من ذلك، وناقشنا الجزء الآخر في حدود مقاييسنا في النقد والأدب.

٨ - وهناك مسألة مهمة تتعلق بتأريخ القرآن، بل بقدسيته وتوثيقه، وهي مسألة التحريف التي أثارها المستشرقون، بكثير من عدم التورع، وقد ألفت بثقلها عند الأستاذ بول (Fr. Bull)، فكتب في موضوع التحريف بحثاً في دائرة المعارف الإسلامية الألمانية^(٢).

اعتبر (بول) التحريف تغييراً مباشراً لصيغة مكتوبة وإن الأمر الذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة هو ما جاء بالقرآن من آيات اتهم فيها محمد ﷺ اليهود بتغيير ما أنزل إليهم من كتب وبخاصة التوراة. ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة انطوى على إدراك خاطيء

(١) يبدأ الفصل الرابع من: ٩٠ إلى: ١٠٥.

(٢) ظ: بول، دائرة المعارف الإسلامية الألمانية: ٦٠٤/٤ - ٦٠٨.

أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود، فكان في نظرهم مبطلاً.

وهنا أثار الكاتب دعاوى لم يستطع أن يدلل على صحة واحدة منها على الإطلاق، وكيف استنتج أن ما عرضه النبي ﷺ من شرائع اليهود انطوى على إدارك خاطيء، وما هو مصدر هذا الزعم ومن صرح به، وكيف أصبح النبي ﷺ مبطلاً في نظر اليهود؟ ولماذا لم يذهب إلى تعصب اليهود في ذلك؟ وليته اكتفى بهذا بل أضاف من عندياته العجيبة بأن دعوى النبي ﷺ دعوى جريئة بأنه هو الذي يأتي بالنصر الصحيح نظراً لأن كتب اليهود كانت مجهولة عند أتباع النبي ﷺ من المؤمنين بصدق كلماته، وإذا كانت هذه الكتب مجهولة عند قومه، فهل جهلت عند اليهود، ولماذا لم يعارض ذلك بدليل تاريخي عندهم.

وقد خلط الأستاذ (بول) في هذا البحث خلطاً غير متناسق، واكّبه فيه النزعات المنحرفة، وصاحبه إسراف وإفراط لا يمتان إلى استكناه الحقائق بصلة، وقد تكفل بالرد على أغلب هفواته الأستاذ أمين الخولي^(١).

والذي يهمنا من بحثه أن نشير إلى ما يلي:

أ - إن النبي ﷺ لم يرد الحصول على تأييد أهل الكتاب بالمعنى الذي أشار إليه، وإنما هو تعبير عن وحدة الديانات والشرائع والأنبياء في جميع الأطوار، وأن أصول هذه الديانات واحدة، وإن تغيير هذه الحقيقة الواقعة يعتبر تحريفاً بالمعنى الذي أشار إليه القرآن: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ النساء / ٤٦

وفي قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْ بِالسِّنِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء / ٤٦.

ب - إن الألفاظ التجريحية التي وردت في المقال بالنسبة للرسول

(١) ظ: المرجع نفسه والصفحات نفسها في الهامش.

الأعظم ﷺ لا تتفق مع المنهج الموضوعي، فقد أشار بل صرح بأن القرآن من تلقاء نفس النبي ﷺ وأنه تحدث في القرآن بطريقة مبهمّة، وأن محمداً ﷺ يستعمل لفظ حرف بدل القرآن.

وهذه مواد لا يفترض بعالم أن يتولى التحدث بها بأسلوب الغمز واللمز وهو ما لا يقبل في بحث علمي، ولسنا نرى ذلك غفلة أو هفوة بل هو تغافل وجفوة.

ج - ادعى الباحث أن خصوم النبي ﷺ أخذوا عليه نسخ بعض أحكام القرآن بأحكام أخرى مما حدا بعلماء المسلمين أن يذهبوا مذاهب شتى في تقديرهم للحقائق التي يقوم عليها هذا الاتهام.

وبإيجاز نقول إن نسخ الأحكام شيء والتحريف شيء آخر، فالنسخ لا يكون تحريفاً، وإنما هو إحلال لحكم مكان حكم، أو دفع لحكم من الأحكام من قبل الله تعالى، تخفيفاً عن العباد، أو رعاية لمصلحة المسلمين، أو استغناء عن حكم موقوت بحكم مستديم، وما أشبه ذلك مما يتعلق بالشرعية أو بمعتنقيها، ولا مجال إلى اللمز في هذه الناحية على إدعاء التحريف في القرآن.

د - يقول الباحث: «وقد أثبتت تهمة التحريف فيما وقع من جدل بين الفرق الإسلامية المختلفة. فالشيعة يصرون عادة على أن أهل السنة قد حذفوا وأثبتوا آيات في القرآن بغية محو أو تفنيد ما جاء فيه من الشواهد معززاً لمذهبهم وقد كال أهل السنة بطبيعة الحال نفس التهمة للشيعة»^(١).

وهذا الكلام عجيب الصدور من هذا الرجل، إذ أثار مسألة مهمة في أقدس أثر من تراث المسلمين، ولم يعط دليلاً واحداً على صحتها، ولم يثبت مرجعاً واحداً يتتبع هذا الاتهام.

والمسلمون جميعاً قد اتفقوا على سلامة القرآن من التحريف، فنصوصه هي النصوص نفسها التي نزلت على عهد رسول الله ﷺ وحفظت

(١) المرجع نفسه: ٦٠٨/٤.

وستبقى محفوظة كما تعهد الله تعالى بذلك في الآية التاسعة من سورة
الحجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ (الحجر/٩).

لقد كان الأجدد بالباحث أن يتناول الموضوع بشكل آخر - لو كان
موضوعياً - فيعرض إلى آراء المسلمين بخلو القرآن من التحريف بدلاً من
تجريح النبي ﷺ ونسبة ما لم يكن إلى المسلمين، بما لا علاقة له بأصول
البحث.

المحاضرة الثانية:

تاريخ القرآن

ما برحت حياة النبي محمد ﷺ موضع عناية الدارسين من أبعاد مختلفة وبقدر ما عبيء للموضوع من أهمية واستعداد، ومنهجية في أغلب الأحيان فما تزال هناك بقية للبحث. فقد تنقصنا كثير من الوثائق عن حياته الروحية قبل البعثة، وصلتها بحياته العامة والخاصة بعد البعثة.

هناك شذرات متناثرة في كتب السيرة والتاريخ والآثار، تتعلق بحياة النبي ﷺ هامشياً، تتخذ مجال الثناء والاطراء حيناً؛ وتتسم بطابع الحب والتقديس حيناً آخر، وهي مظاهر لا تزيد من منزلة النبي الذاتية ولا تكشف عن مكنونات مثله العليا، ذلك باستثناء الاجماع على عزلته في عبادته وتحنثه، والاقتناع بصدقه وأمانته، وهي شذرات غير غريبة في أصالة النبي ﷺ الكريمة، وتقويمه الخلفي الرصين.

وتطالعنا - أحياناً - أحداث في تاريخ النبي ﷺ قبل البعثة، لها مداليل من وثاقة، ورجاحة من عقل، كالمشاركة الفاعلة في حلف الفضول؛ وتميزه بالدفاع عن ذوي الحقوق المهتزمة، وكاللفتة البارعة في رفع الحجر الأسود، ووضعه بموضعه من الكعبة اليوم. بما أطفأ به نائرة وأخمد فتنة.

وهناك انفراد عن شباب عصره بالحشمة والاتزان، وهو في شرح الصبا وعنقوان العمر، والتأكيد على الخلوة الروحية بين جبال مكة وشعابها، وفي غار حراء بخاصة، والحديث عن تجواله في سفرتين تجاريتين لا يفصح كثيراً عن ثمرة تجربتهما النفسية، ولا يعرف صدى مشاهداتهما روحياً واجتماعياً.

في حياته العائلية قبل البعثة نجده يتيماً يسترضع في بني سعد، ويفقد أبويه تباعاً، ويحتضنه جده عبد المطلب حضانة العزيز المتمكن، وبوفاته يوصي به لأبي طالب، ويتزوج وهو فتى في الخامسة والعشرين من عمره من السيدة العربية خديجة بنت خويلد، وكان زواجاً ناجحاً في حياة عائلية سعيدة، تكد وتكدح في تجارة تتأرجح بين الربح والخسران، وفجأه الوحي الحق، والتجأ إلى خديجة، تزملة أنا، وتذرته أنا آخر.

وينهض النبي ﷺ في دعوته، فتجد الدعوة مكذبين ومصدقين وتقف قريش بكبرياتها وجبروتها في صدر الدعوة، ويلقى الأذى والعنت من قومه وعشيرته الأقربين، وفي حمأة الأحداث يموت كافلة وزوجه في عام واحد، فيكون عليه عام الأحزان، فلا اليد التي قدمت المال للرسالة، ولا الساعد التي آوى وحامي، ويوحى إليه بالهجرة، فتمثل حدثاً عالمياً فيما بعد.

هذه لمحات يذكرها كل من يترجم للنبي ﷺ، يطيل بها البعض ويوجز البعض الآخر؛ وليست هي كل شيء في حياة النبي ﷺ، فقد تكون غيضاً من فيض.

ولست في صدد تأريخية هذه الأحداث، ولا بسبيل برمجتها لألقي عليها ظلالاً مكثفة من البحث؛ ولكنها لمسات تمهيدية تستدعي الإشارة فحسب.

ومهما يكن من أمر، فقد تبقى طريقة النبي ﷺ المنهجية في التوفيق بين واجباته ومهامه القيادية من جهة، وبين حياته العامة ومساره الدنيوي من جهة ثانية لا تجد تأريخاً يمثل بدقة ووضوح تأمّين: المنهج الرئيسي الذي اختطه لنفسه هذا القائد العظيم وهو في مكة المكرمة.

في المدينة المنورة حيث العدد والعدة، والنصرة والفداء، نلمس إحياء قرآنياً بنقطتين مهمتين:

الأولى: مواجهته للمنافقين وتحركهم جهرة وخفاء، وتذبذبهم أزاء الرسالة بين الشك المتماذي والتصديق الكاذب، يضافحون أهل الكتاب تارة، ويوالون مشركي مكة تارة أخرى، حتى ضاق بهم ذرعاً، ونهاهم القرآن الكريم عن الترددي في هذه الهاوية مراراً وتكراراً، وهددهم بالاستئصال والتصفية بعض الأحيان، ولم ينقطع كيدهم، فمثلوا ثورة

مضادة داخلية تفتك بالصفوف وتفرق الجموع، لولا الوقوف في نهاية الأمر بوجه تردهم الخائف، وهزائمهم المتلاحقة، أثر ما حققه الإسلام من انتصارات في غزواته وحروبه الدفاعية، إلا أن جذوتهم بقيت ناراً تحت الرماد، وعاصفة بين الضلوع، تخدم تارة وتهب أخرى.

الثانية: مجابته للفضوليين، الذين كانوا يأخذون عليه راحته ويزاحمون وهو في رحاب بيته، بين أفراد أسرته وزوجاته، فينادونه باسمه المجرد ويطلبون لقاءه دون موعد مسبق، بما عبر عنه القرآن بصراحة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١).

واستأثر البعض من هؤلاء وغيرهم بوقت القائد، فكانت الثثرة والهذر وكان التساؤل والتنطع، دون تقدير لملكية هذا الوقت، وعائدية هذه الشخصية فحد القرآن من هذه الظاهرة واعتبرها ضرباً من الفوضى، وعالجها بوجوب دفع ضريبة مالية تسبق هذا التساؤل أو ذاك الخطاب، فكانت آية النجوى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وكان لهذه الآية وقع كبير، فامتنع الأكثرون عن النجوى، وتصدق من تصدق فسأل ووعى وعلم، وانتظم المناخ العقلي بين يدي الرسول الأعظم ﷺ فكف الفضول، وتحددت الأسئلة، ليتفرغ النبي ﷺ للمسؤولية القيادية، ولما وعت الجماعة الإسلامية مغزى الآية، وبلغ الله منها أمره، نسخ حكمها ورفع، وخفف الله عن المسلمين بعد شدة مؤدبة وفريضة رادعة وتأنيب في آية النسخ:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُحُودِكُمْ صَدَقَتٌ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

(١) الحجرات: ٤.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) المجادلة: ١٣.

كان هذا وذاك يستدعي الوقوف فترة زمنية عند رعاية الوحي للنبي ﷺ في التوفيق بين واجباته القيادية، وحياته الاعتيادية، فأمام المنافقين نجد الحذر واليقظة يتبعهما الإنذار النهائي بإغراء النبي بهم، وعند الحادثتين التاليتين نجد الوحي حاضراً في اللحظة الحاسمة، فيسليه في الأولى بأن أكثر هؤلاء لا يعقلون. ويعظمهم في الثانية بجعل مقامه متميزاً فلا يخاطب إلا بصدقة، ولا يسأل إلا بزكاة.

وما زلنا في هذا الصدد فإننا نجد الوحي رفيقاً أميناً لهذا القائد الموحى إليه، من هذه الزاوية التوفيقية بين التفرغ لنفسه، والتفرغ لمسؤولياته، وهذا أهم جانب يجب أن يكشف في حياة النبي ﷺ والكشف عنه إنما يتم بدراسة حياة النبي ﷺ الخاصة مرتبطة بهذه الظاهرة وهي ظاهرة الوحي الإلهي، ومدى الاتصال والانفصال بينها وبين النبي ﷺ وحاجته الملحة إلى هذا الشعاع الهادي، منذ البدء وحتى النهاية.

لم يكن النبي ﷺ بدعاً من الرسل، ولم يختص بالوحي دونهم بل العكس هو الصحيح، فقد شاركهم هذه الظاهرة، وقد أوحى إليه كما أوحى إليهم من ذي قبل.

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾^(١).

فقد هدفت الآية وما بعدها إلى بيان حقيقة الوحي الشاملة للأنبياء كافة ممن اقتص خبرهم وممن لم يقتص، وإيثار موسى ﷺ بالمكالمة وحده.

ويبقى التساؤل قائماً؛ بماذا تفسر هذه الظاهرة، وكيف تعلق نفسياً

وكيف تنطبق كونياً، وكيف عولجت قرآنيًا؟ وما هو سبيل معرفتها جوهرياً عند النبي ﷺ؟ وعند الناس؟ وكيف آمن به بكل قوة ويقين وآمن بها من حوله؟

وللإجابة عن هذه الافتراضات، لا بدّ من رصد جديد لهذه الأبعاد كافة، وقد يرى ذلك غريباً في تاريخ القرآن، ولكن نظرة تمحيصية خاطفة، تؤصل حقيقة هذا المناخ، وتؤكد ضرورة هذا المنهج، لأن الوحي يشكل بعداً زمنياً معيناً يقترن بنزول القرآن، وذلك أول تأريخ القرآن، ويستمر معه بوحي القرآن متكاملًا، وكل ذلك تفصيلات تاريخ القرآن في عهد الرسالة، وهو الجزء المهم والأساس في هذا التاريخ.

وباستعراض هذه الافتراضات سوف نلمس النبي ﷺ عبداً مأموراً محتسباً، ينفذ ولا يسأل، ويبلغ ولا يضيف، مهمته التلقي والأداء مستقلاً بذاته، منفصلاً عن ظاهرته، ويبقى الجمع بين حياته العامة والخاصة من اختصاصه بتوجيه من الله تعالى، وبعناية من وحيه، فلا تعارض بينهما فيرتفع بذلك ما أثرناه مسبقاً، ويتلاشى الأشكال بهذا الملحظ، مع أننا نلمس بشكل جاد أن النبي ﷺ قد وهب حياته للوحي، مبلغاً أميناً ورسولاً كريماً، إلا أن شخصيته حقيقة، والوحي حقيقة أخرى، وهذا ما ندأب إلى إثباته علمياً.

ان ما يذهب إليه بعض المستشرقين من أن ظاهرة الوحي، قد يراد بها المكاشفة، وقد يعبر عنها بالوحي النفسي تارة، أو الإلهام المطلق تارة أخرى، دون تحديد مميز، لا يتوافق مبدئياً مع دراسة النهج الموضوعي لظاهرة الوحي. ان كلمة الإلهام ليس لها أي مدلول نفسي محدد، مع أنها مستخدمة عموماً لكي ترد معنى الوحي إلى ميدان علم النفس. والوحي النفسي يدور حول معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير، والوحي الإلهي يجب أن يأخذ معنى المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير، وأيضاً غير قابل للتفكير.

والمكاشفة لا تنتج عند صاحبها يقيناً كاملاً، ويقين النبي ﷺ بالوحي قد كان كاملاً، مع وثوقه بأن المعرفة للوحي بها غير شخصية، وطارئة

وخارجة عن ذاته^(١) والوحي الالهي هو الفعل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله^(٢).

وإذا كان الوحي فعلاً متميزاً، فهو صادر عن فاعل مريد، وهذا الفاعل المريد هو الله تعالى، وليس الإلهام والكشف كذلك، وهذا ما يميز الوحي عن المكاشفة، والوحي النفسي، والإلهام، إذ أن مرد الإلهام يعود عادة إلى الميدان التجريبي لعلم النفس، ونزعة الوحي النفسي في انتداحها تعتمد على التفكير في الاستنباط، والمكاشفة تتأرجح بين الشك واليقين.

أما الوحي فحالة فريدة لا تخضع إلى التجربة أو التفكير ومتيقنة لا مجال معها للشك. مضافاً إلى أن حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسي حالات لا شعورية ولا إرادية، والوحي ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والادراك التأمين.

والوحي بالمعنى المشار إليه يختص بالأنبياء، وليس الإلهام أو الكشف كذلك، فهما عامان وشائعان بين الناس.

ولقد فرق المستشرق الألماني الدكتور تبودور نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠ م) بين الوحي والإلهام تفريقاً فيه مزيج بين الواقع والصوفية فعد الوحي خاصاً بالأنبياء، والإلهام خاصاً بالأولياء إذ لا يوحى إليهم^(٣).

ويتجلى الفرق بين الإلهام والوحي بتعبير آخر، وبتصور متغاير، أن مصدر الإلهام باطني، وأن مصدر الوحي خارجي، بل الإلهام من الكشف المعنوي، والوحي من الواقع الشهودي، لأن الوحي إنما يتحصل بشهود الملك وسماع كلامه، أما الإلهام فيشرق على الإنسان من غير واسطة ملك فالإلهام أعم من الوحي، لأن الوحي مشروط بالتبليغ، ولا يشترط ذلك في الإلهام. والإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق، ويصلح للبرهان والإلزام، وإنما هو كشف باطني، أو حدس، يحصل به العلم للإنسان في

(١) ظ: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٦٧ وما بعدها.

(٢) ظ: د. جميل صليبا، المعجم الفلسفي: ٥٧٠/٢.

(٣) ظ: نولدكه. دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٩ مادة: الدين.

حق نفسه لا على وجه اليقين والقطع، كما هي الحالة في الوحي، بل على أساس الاحتمال الاقناعي^(١).

ولهذا فلا اعتبار بما حاوله الأستاذ محمد عبده: بجعل الإلهام وجداناً تستيقنه النفس، وحسبان ذلك طريقاً لإمكان الوحي^(٢).

ان طريق الوحي هو التلقي، وطريق هذا التلقي هو المَلَكُ، وفي ضوءه نجد عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ) جدياً يتمثل الوحي متفرداً بما ألقاه جبرئيل على النبي ﷺ وأن القول بأنه: «قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يلقي في نفس الإنسان، ويهدى له من طريق الخاطر والهاجس الذي يهجس في القلب، فذلك مما يستعاذ بالله منه، فإنه تطرق للإلهام»^(٣).

ولقد تطرق بعض الباحثين الكهنوتيين فادعى بأن الوحي: «هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين لإطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم فلكل منهم نمطه في التأليف، وأسلوبه في التعبير»^(٤).

وهذا التعبير عن الوحي بهذا الفهم، يختلف جذرياً عن المفهوم القرآني للوحي ويضفي مناخاً باطنياً في الحلول والاتحاد، يدفعه الإسلام، وهو سبيل مختصر إلى تقمص الصفاء الروحي وادعائه من قبل من لم يحصل عليه وفيه استهواء للدجل الاجتماعي عند الكهنة والكذبة، وبعد هذا: فهو مغاير لمفهوم الوحي وطريقته اللذين خاطب الله بهما رسله وعلمهم من خلالهما، مع استقلال في شخصية الوحي، بعيدة عن مراتب الفراسة والتجانس الروحي، واستقلال في المتلقى بعيد عن الاستنتاج الذاتي، أو التعبير المطلق بكل صورته.

ان عملية الوحي الإلهي إنما تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين:

(١) ظ: د. جميل صليبا المعجم الفلسفي: ١٣١/١.

(٢) ظ: محمد عبده، رسالة التوحيد: ١٠٨.

(٣) عبد القاهر، الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ١٥٦.

(٤) جورج بوست، قاموس الكتاب المقدس، وانظر: صبحي الصالح مباحث في علوم القرآن: ٢٥.

«ذات متكلمة أمره معطية، وذات مخاطبة مأمورة متلقية»^(١).

ولم تتشاكل في مظهر من مظاهر الوحي وظاهرته، الذات المتكلمة والذات المخاطبة في قالب واحد، ولم يتحدا في صورة واحدة على الإطلاق فهما متغايران.

إن ظاهرة الوحي الإلهي مرئية ومسموعة. ولكنها خاصة بالنبى ﷺ وحده فما اتفق ولو مرة واحدة، أن سمع أصحابه صوت الوحي، ولا حدث أن رأوا هذا الكائن الموحى، ومع هذا فقد أدركوا صحة ما نزل عليه وصدق ما أوحى إليه، بدلائل الإعجاز، وقرائن الأحوال واعتبارات الاختصاص، فالنفس الإنسانية وإن كانت واحدة في الأصل والجوهر، ولكنها تختلف شفافية كما تختلف تخويلاً من قبل الله تعالى، فالنبى ﷺ يرى ويسمع ويعي ما حوله من الظاهرة بيقين مرئي مشاهد، ومن حوله لا يرون ولا يسمعون ولكنهم يصدقون ويؤمنون. وربما قيل: إن ما يتلقاه النبى ﷺ من الروح الأمين وهو رسول الوحي: «هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة، التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الأمور الجزئية فكان ﷺ يرى ويسمع حينما يوحى إليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع. . فكان ﷺ يرى الشخص، ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين كما نستخدمها، ولو كانت رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره، فكان سائر الناس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمع والنقل القطعي يكذب ذلك، فكثيراً ما كانت تأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه، ومن حوله لا يشعرون بشيء، ولا يشاهدون شخصاً يكلمه»^(٢).

وقد يفسر هذا بأنه ظاهرة ذاتية، ولكن عمى الألوان^(٣) مثلاً يقدم لنا

(١) ظ: مالك بن بني، الظاهرة القرآنية: ١٩٤: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٢٧.

(٢) الطباطبائي، الميزان: ٣١٧/١٥ وما بعدها.

(٣) عمى الألوان قسماً: كلي وجزئي فالكلي هو العجز عن التمييز بين الألوان مع بقاء الاحساس البصري سليماً من الاضطراب، والجزئي هو العجز عن إدراك لون بعينه أو عن تمييز ذلك اللون عن غيره. (ظ: المعجم الفلسفي: ١٠٨/٢).

حالة نموذجية، لا يمكن في ضوءها أن ترى بعض الألوان بالنسبة لكل العيون.

«هناك مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر، وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علمياً أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون، فلقد توجد عيون يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة، كما يحدث في حالة الخلية الضوئية الكهربائية»^(١).

وهذا مطرد بالنسبة للبصر المادي المتفاوت، أما على التفسير الأول فينتفي الاشكال جملة وتفصيلاً، فهو من باب الأولى.

ولقد توصل النبي ﷺ إلى اليقين القطعي بصدق الرؤية والسمع عند حدوث ظاهرة الوحي طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، وكان لذلك إمارات خارجية تبدو على وجهه وعينه وجبينه، من شحوب أو احتقان أو تصبب عرق وقد يرافق ذلك دوي بحسه أو أصداء أو أصوات كما تقول الروايات^(٢).

ولكن هذه المظاهر لم تمتلك عليه وعيه الكامل، وإحساسه اليقظ لأنها امارات خارجية لا تغير من حقيقة شعوره على الإطلاق، فقسمات الوجه، وتعرق الجبين، وشحوب المحيا لا تدل في حالة اعتيادية على تغير في الوعي أو انعدام للذاكرة، أو فقدان للشعور، وما هي إلا طوارئ عارضة لا تمس الجوهر بشيء.

ولقد تعجل بعض النقاد من المستشرقين، حين ألموا بهذه الدلائل النفسية والامارات الشكلية الخارجية التي لا تنتاب الوعي إطلاقاً ولا تؤثر في الإدراك في حال، فعدوها - مخطئين - أعراضاً للتشنج تارة، وللأغماء تارة أخرى. «وهذا الرأي يشمل خطأ مزدوجاً حين يتخذ من هذه الأعراض الخارجية مقياساً يحكم به على الظاهرة القرآنية بمجموعها، ولكن من

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ١٧٨.

(٢) ظ: ابن سعد الطبقات الكبرى: ١٩٧/١ + البخاري والجامع الصحيح: ٤/١ + الفتح الرباني: ٢٠/٢١٢ + فتح الباري: ٢١/١.

الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء الواقع النفسي المصاحب الذي لا يمكن أن يفسر أي تعليل مرضي... فإذا نظرنا إلى حالة النبي ﷺ وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يحتقن، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها، على حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة فالحالة إذن ليست حالة تشنج.

هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها وحالة معينة هو الطابع الخارجي المميز للوحي^(١).

وهكذا كان لظاهرة الوحي عند بعض المستشرقين تفسيرات خاطئة أملاها حقد ودجل وافتراء، فقد كان الوحي على حدّ زعمهم أثراً لنوبات الصرع التي تعترى الرسول الأعظم ﷺ فكان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتبره التشنجات، وتخرج من فيه الرغوة فإذا أفاق من نوبته ذكر أنه أوحى إليه؛ وتلا على المؤمنين به ما يزعم - أنه وحي من ربه -^(٢) كما صنع هذا قسم من المستشرقين الألمان واليهود أمثال: فيل؛ جولد سيهر، وبول.

ومع ما في هذا الزعم من الكذب المضحك، والغض المتعمد من منزلة النبي الرسالية، فالطريف أن ينبري له المستشرقون أنفسهم، لا سيما هنري لامنس، وفون هامر، وأمثالهما، للرد عليه، إلا أن في طليعة هؤلاء جميعاً السير وليم موير (١٨١٩ م / ١٩٠٥ م)^(٣).

لقد فند هذا الباحث المحايد في كتابه (حياة محمد) مزاعم الجهلة الحاقدين وعقب على ظاهرة الوحي وأعراضها الخارجية بقوله: «وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو لخاطيء من الناحية العلمية أفحش الخطأ. فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقة من نوبته

(١) مالك بن بني، الظاهرة القرآنية: ١٨٢.

(٢) ظ: بكري أمين، التعبير الغني في القرآن: ١٨.

(٣) Sir William Muir, Life of Mohammad P (14 - 29).

نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها، لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام العطل. هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به، يذكر بدقة - غاية الدقة - ما يتلقاه بعد ذلك على أصحابه، ثم نزول الوحي لم يكن يقترن حتماً بالغيوبة الحسية مع تنبه الادراك الروحي غاية التنبه، بل كثيراً ما يحدث والنهي في تمام يقظته العادية»^(١).

بينما زعم جملة من المستشرقين: بأن النبي ﷺ كان في القرآن والوحي ساحراً؛ وأنه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية، فاخترع ديناً جديداً ليتقم من زملائه^(٢).

وقد هز هذا التحدي السافر المستشرق (اميل درمنجهام) ففند أباطيل هؤلاء الدعاة، وحمل عليهم؛ ورد هذه التهم الرخيصة التي خالفت الواقع^(٣).

في حين نلاحظ أن جماعة من المستشرقين قد دأبوا منذ زمن مبكر حتى عصرنا الحاضر، على وصف القرآن بأنه نسيج من الخرافات، وبأن الوحي مجموعة من البدع، وبأن المسلمين وحوش، وكان نموذج ذلك كل من: تيكولا دكيز، وهو تنجر، وبلاندر، وبريدو^(٤).

وهذا النوع من المستشرقين قد دفع تبشيراً إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام، لتقليل أهميتهما وزعزعة النفوس عنهما؛ وإسدال ظلال كثيفة قائمة حول تاريخ الوحي دون دليل علمي يستند عليه، بيد أن الحديث المتأطر بهذا القناع لا يمكن أن يوافق قبولاً لدى الباحثين لأنه عاطفي.

وأني لأستغرب حقاً مما أبداه المستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون حينما ينفي تهمة الصرع عن الرسول الأعظم ﷺ ولكنه يصفه بالهوس، وهو أمر يدعو إلى الحيرة والعجب لما في بحوث هذا الرجل من

(١) ظ: بكري أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٩.

(٢) ظ: موسوعة لاروس الفرنسية، مادة، محمد.

(٣) The Life of Mohamea, 135.

(٤) ظ: المؤلف، المستشرقون والدراسات القرآنية: ١٦.

الاعتدال والإنصاف غالباً، فكيف يتم على يديه هذا النص المخجل: «وقيل إن محمداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح هذا القطع في هذا الرأي، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد وعائشة منهم، من أنه كان إذا نزل الوحي عليه اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان، وإذا عدوت هوس محمد، ككل مفتون، وجدته حصيفاً سليم الفكر.

ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك فألو الهوس وحدهم لاذو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويعودون الناس، ومن يبحث في عمل المفتونين في العالم يعترف بأنه عظيم.. ولو كان العقل، لا الهوس هو الذي يسود العالم لكان للتأريخ مجرى آخر... ولا يقف أي قول بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد كما يلوح لي، ومحمد كان يجد في هوسه ما يحفزه إلى اقتحام كل عائق، ويجب على من يود أن يفرض إيمانه على الآخرين أن يؤمن بنفسه قبل كل شيء...»^(١).

وهذا دس رخيص، وتناقض فاضح، مزج فيهما السم بالعسل؛ فبينا ينفي الصرع عن النبي ﷺ وإذا به يثبت الهوس له ولينفي الوحي والرسالة جملة وتفصيلاً.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نرصد في ظاهرة الوحي عملية إرسال واستقبال بوقت واحد، إرسال بوساطة الملك المؤمن، واستقبال من قبل النبي المصطفى ﷺ، يتم ذلك في حالة إدراك متماسكة، يسيطر فيها الوعي والشعور والإحساس، كما لو كان أمراً عادياً في يقظة حقيقية، قبل الوحي وأثناء الوحي، وبعد الوحي، مهما صاحب عملية الوحي من شدة وطأة ومفاجئة، فالوحي حقيقة خارجية مستقلة عن كيان النبي ﷺ النفسي ولكنها لا تغير ذلك الواقع النفسي، بل تزيده جلاء وفطنة وذاكرة ويمثل فيها النبي ﷺ دور المتلقي الواعي من جهة، ودور المبلغ الأمين من جهة أخرى، لا يقدم ولا يؤخر؛ ولا يغير ولا يقترح؛ ولا يفتر ولا يتكاسل.

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب: ١٣٣ وما بعدها.

ولقد كان ذلك بحق:

«استقبالاً من النبي لحقيقة ذاتية مستقلة؛ خارجة عن كيانه وشعوره الداخلي؛ وبعيدة عن كسبه أو سلوكه الفكري أو العملي»^(١).

وليس من الضروري أن تتوافر هذه الظاهرة مع رغبات النبي ﷺ الآنية أو تطلعاته النفسية الملحة؛ فقد ينقطع عنه الوحي، وقد يتقاطر عليه، ولكنه لا يعدو الوقت المناسب في تقدير الله عزّ وجلّ؛ وما تحويل القبلة إلى الكعبة؛ وإبطاء الوحي في حادثة الإفك؛ وفترة الوحي حيناً؛ والتلبث في قصة أهل الكهف؛ إلا شواهد تطبيقية على ما نقول؛ وأدلة مثبتة بأن الوحي خارج عن إرادته ومستقل عن ذاته. ولا شك أن النبي ﷺ آمن منذ اللحظة الأولى - بقناعة شخصية متوازنة - بأن ما يوحى إليه ليس من جنس الأحلام وأضغاثها؛ ولا من سنخ الرياضات ومسالكها، ولا من باب الأحاسيس القائمة على أساس من الذكاء والفطنة، ولا من قبل التخيلات المستنبطة من الحدس والفراسة وإنما كان بإيمان نفسي محض بأنه نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى، وما الروايات والاسرائيليات القائلة بشكه في الظاهرة إلا ضرب من الأخيلة التي لا يدعمها دليل «والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت ﷺ»^(٢).

ويوحى الله عزّ وجلّ لملك الوحي؛ ما يوحىه المَلَكُ إلى النبي عن الله ويتسلم النبي الوحي؛ فالوحي واحد هنا مع تقاسم المسؤولية وهو عام بالنسبة لكل الأنبياء؛ وخاص بالنسبة لوحي القرآن أيضاً؛ فالمَلَكُ يؤدي عن الله لمحمد ﷺ ومحمد ﷺ يتلقى ذلك الوحي من المَلَكُ ويؤدي ما يوحى به إليه إلى الناس وكان ذلك طريق الوحي القرآني فحسب؛ وقد صرح به القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾^(٣).

(١) بكرى أمين؛ التعبير الفني في القرآن: ١٩.

(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٣٢٨/٢٠.

(٣) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.

والروح الأمين هو جبرئيل عليه السلام بإجماع الأمة والروايات؛ قال الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) «يعني جبرئيل عليه السلام؛ وهو أمين الله لا يغيره ولا يبدله.. لأن الله تعالى يسمعه جبرئيل فيحفظه: وينزل به على الرسول ويقرؤه عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه؛ فكأنه نزل به على قلبه»^(١).

وهذا صريح يكفيه تلقي النبي ﷺ للقرآن من جبرئيل عليه السلام على قلبه تثبيتاً وحفظاً ورعاية؛ والقلب أشرف الأعضاء للتدبر والتفكير أن أريد به هذا الجهاز العضلي؛ وإلا فهو الإدراكات النفسية الخاصة لدى النبي ﷺ المستعدة للتلقي والصيانة والاستيعاب دون ريب. وكان ما نزل به جبرئيل عليه السلام بإيحاء من الله تعالى هو النص الصريح من الوحي القرآني دون زيادة أو نقصان؛ بألفاظه المدونة في المصحف من ألفه إلى يائه.

ولما كان الأمر كذلك؛ فقد تحدث هذا النص المحفوظ بين الدفتين عن ظاهرة الوحي بوحى القرآن وسواه؛ وطرقها؛ وكيفيتها؛ وأقسامها ومن الضروري حقاً استعراض مختلف أنشطة الموضوع من القرآن نفسه مع الاستعانة باللغة حيناً، وبالتبادر العربي العام حيناً آخر، لأن القرآن عربي، والتبادر علامة الحقيقة.

لقد صرحت الآية:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾^(٢).

بطرق الوحي الالهي؛ وحددت كيفية هذا الوحي؛ ومراتب إيصاله على النحو الآتي:

١ - الوحي:

وأصل الوحي هو: الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض؛ وما جرى مجرى الإيماء والتنبيه على الشيء من غير أن يفصح به^(٣).

(١) الطبرسي: مجمع البيان: ٢٠٤/٤.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) قارن في ذلك بين: الراغب، المفردات: ٥١٥ + الطبرسي، مجمع البيان: ٣٧/٥.

وقد يكون أصل الوحي في اللغة كلها الإعلام في خفاء^(١). ومؤدى التعريفات واحد فيما يبدو، إذ الإشارة السريعة؛ اعلام عن طريق الرمز؛ والرمز إيماء يستفيد منه المتلقي أمراً إعلامياً قد يخفى على الآخرين. ومن ثم قيل «الكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه وحي»^(٢) باعتبار أسرارها إليهم من قبل ملك الوحي: واختصاصها بهم دون سائر الناس قال ابن الأنباري: سمي الوحي وحيّاً لأن الملك أسره على الخلق؛ وخص به النبي ﷺ^(٣).

ومن هنا يبدو أن التعريف الشرعي منحدر عن الأصل اللغوي في خصوصية الأسرار والاعلام السريع؛ وما يصاحب ذلك من الإشارة والرمز اللذين يخفيان على الآخرين. وقد عبر الأستاذ محمد عبده عن ذلك بما يقارب هذا المؤدى فقال: «بأنه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة؛ أو بغير واسطة؛ والأول يتمثل لسمعه بصوت أو بغير صوت»^(٤).

ولعل المراد بما يتلقاه النبي ﷺ من العرفان اليقيني بغير صوت هو اللقاء في الروح؛ وذلك بأن ينفث الله في روح النبي ﷺ ما يشاء من أمر؛ أو ينفث روح القدس ما أوحى إليه بتبليغه إياه؛ فيكون ذلك من الوحي بوجه من الوجوه. وقد يؤيد هذا الملحظ ما نسب إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي»^(٥).

٢ - سماع كلام الله تعالى مباشرة من وراء حجاب دون معاينة أو رؤية؛ لامتناع ذلك عقلاً وشرعاً؛ كما كلم الله موسى بن عمران ﷺ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٦) وكان ذلك من وراء حجاب «وهو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلا من يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى ﷺ لأنه حجب ذلك عن جميع الخلق إلا عن موسى ﷺ وحده؛

(١) ظ: ابن منظور، لسان العرب: ٢٥٨/٢٠.

(٢) الراغب الأصبهاني: المفردات: ٥١٥.

(٣) ابن منظور: لسان العرب: ٢٥٨/٢٠.

(٤) محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي: ٢٨.

(٥) ظ: الحديث في الاتقان للسيوطي: ١٢٩/١ + المفردات للراغب: ٥١٥.

(٦) النساء: ١٦٤.

لأن الحجاب لا يجوز إلا على الأجسام المحدودة»^(١).

٣ - أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء؛ كما في تبليغ جبرئيل عليه السلام لرسول الله ﷺ في صورة معينة أو صور متعددة؛ وحي القرآن الكريم عن الله؛ من غير أن يكلم الله نبيه على النحو الذي كلم به موسى عليه السلام. هذه الأصناف والمراتب في الإيحاء حددتها الآية الكريمة السابقة فيما يتعلق بوحى الأنبياء كما يبدو؛ إلا أننا من متابعة هذه الظاهرة في القرآن الكريم لاحظنا بعض الدلالات الإيحائية لهذا التعبير قد تختلف عما تقدم، ويمكن الإشارة إلى أهمها بما يأتي:

أ - إلهام:

وهو أن يلقي الله تعالى في النفس أمراً يبعث على الفعل أو الترك وهو نوع من الوحي، يخص به الله من يشاء من عباده غير قابل للتفكير به أو التخطيط له مسبقاً، ليفرق بينه وبين الحالات اللاشعورية من جهة والسلوك الكسبي من جهة أخرى، كما يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرِضْ عَلَيْهِ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا يَوْحَىٰ﴾^(٣).

ب - التسخير:

وهو أن يسخر الله تعالى بعض مخلوقاته إلى عمل ما بهديه وإشاءته وتسخيره، بشكل من الأشكال التي لا تستوعبها بعض مداركنا أحياناً، ويستيقنها الذين آمنوا دون أدنى شبهة، ما يدل على هذا النوع قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٤).

(١) الطبرسي: مجمع البيان: ٣٧/٥.

(٢) القصص: ٧.

(٣) طه: ٣٨.

(٤) النحل: ٦٨.

ج - الرؤيا الصادقة :

وهي وحي إلهي بالنسبة للأنبياء خاصة، يتلقون فيها الأوامر ويتسلمون التعليمات من السماء، كما دل على ذلك قوله تعالى - فيما اقتص الله من خبر إبراهيم عليه السلام مع ولده -

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَيَّنَتْهُ أَنْ يَتَّيَّبَرَهُ ۗ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾^(١).

فأشارت الآيات إلى الرؤيا الصادقة في المنام، إلى استفادة إبراهيم وولده عليهم السلام، الأمر الإلهي فيها، للدلالة على أنها وحي يستلزم العمل به، بدليل تعقيب ذلك من قبل الله في خطاب إبراهيم عليه السلام بتصديق الرؤيا وجزاء المحسنين. وقد تكون الرؤيا في جزء من هذا الملحظ تمهيداً للوحي المباشر وقد يعبر عنها بالصادقة أو الصالحة، كما حصل هذا المعنى بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أول بدء الوحي، كما في رواية أم المؤمنين عائشة:

«أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة (الصالحة) في النوم. فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(٢).

وقد تكون الرؤيا نوعاً من الوعد الحق الذي يقطعه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم كما هو الحال في شأن فتح مكة، قال تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ؎ آمِينَ ﴿٢٧﴾﴾^(٣).

وقد دل على جميع ما تقدم مضافاً للدلالات القرآنية ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم «انقطع الوحي، وبقيت المبشرات. رؤيا المؤمن؛ فالالهام والتسخير والمنام»^(٤).

(١) الصفات: ١٠٢ - ١٠٥.

(٢) البخاري، الجامع الصحيح: ٧/١.

(٣) الفتح: ٢٧.

(٤) الراغب، المفردات: ٥١٦.

وفيه - إذا صح - تفريق بين الوحي المباشر؛ وهو جبرئيل عليه السلام، وبين ما أشار إليه من المبشرات التي يبدو أنها غير الوحي الذي يريده الرسول الأعظم ﷺ في الحديث. وقد يكون الوحي بملحظ آخر عام بين جميع الأنبياء والرسول ﷺ وقد يكون خاصاً بالنبي ﷺ فما كان عاماً يكون مشتركاً بينه وبين الأنبياء والمرسلين لأنه أحدهم بل سيدهم، وما كان خاصاً ينفرد به وحده. فالأول: كقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥) (١).

ويبدو أن هذا الوحي يشتمل على جميع أقسام الوحي وكيفياته، ولا يختص بالإيحاء بمعناه الدقيق، لأن الإيمان بالوحدانية فطرة إنسانية تحتمها طبيعة العقل السوي، والأنبياء بعامة يتمتعون بهذه الفطرة نفسياً وعقلياً.

قال الراغب الأصبهاني (ت: ٥٠٢ هـ): «فهذا الوحي هو عام في جميع أنواعه، وذلك أن معرفة وحدانية الله تعالى، ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختص بأولي العزم من الرسل بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فاذن المقصود من الآية تنبيه أنه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله ووجوب عبادته» (٢).

والثاني: ما هو مختص بالنبي ﷺ وحده، كالأمر له في قوله تعالى:

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (١٦٦) (٣).

وكإخباره عن نفسه كقوله تعالى:

﴿إِنْ أَنْبَأُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤).

وكالطلب إليه ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَنَ كَانِ يَرْجُوا لِقَاءَ

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الراغب، والمفردات: ٥١٦.

(٣) الأنعام: ١٠٦.

(٤) الأحقاف: ٩.

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾^(١).

وفي هذا الضوء، فإن ما يوحى به إلى النبي ﷺ لا يخلو: إما أن يكون تعليمات يؤمر بإشاعة مفاهيمها بين الناس بحال من الأحوال وإما أن يكون كلاماً يؤمر بتدوينه، ويثبته الله في قلبه، ويتلوه بلسانه فيكون كتاباً فيما بعد وإلى هذا أشار الزهري بقوله: «ما يوحى الله به إلى نبيٍّ من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله، ومنه ما لا يتكلم به ولا يكتبه لأحد ولا يأمر بكتابه لأحد ولكنه يحدث الناس به حديثاً، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويُبلغهم إياه»^(٢). والقرآن الكريم من النوع الذي ثبت في قلب النبي ﷺ وتكلم به وأمر بكتابه وتدوينه، بعد إنزاله وحياً من قبله. وقد أورد الزركشي عن السمرقندي ثلاثة أقوال في المنزل من القرآن:

١ - أنه اللفظ والمعنى، وأن جبرئيل ﷺ حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به.

٢ - أن جبرئيل ﷺ إنما نزل بالمعاني الخاصة، وأن النبي ﷺ علم تلك المعاني، وعبر عنها بلغة العرب.

٣ - أن جبرئيل ﷺ، إنما ألقى إليه المعنى، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب^(٣) والأول هو الصحيح دون ريب، لأن جبرئيل ﷺ وصف بالروح الأمين لأمانته المتناهية فلا يضيف ولا يغير ولا يبدل ولا ينسى ولا يخون ولا يتجوز، كيف لا وهو روح القدس بقوله تعالى:

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٤).

والقرآن نازل من عند الله بألفاظه نفسها، وما مهمة جبرئيل ﷺ إلا

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) السيوطي، الاتقان: ١٢٨.

(٣) الزركشي، البرهان: ٢٢٩/١ + السيوطي، الاتقان: ١٢٦/١.

(٤) النحل: ١٠٢.

تبليغ الوحي كما تسلمه وهو آيات الكتاب الكريم بنصوصها خالصة بدلالة قوله تعالى:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ (١٨٨) (١).

وقد اختار السيوطي ذلك تعبداً بلفظ القرآن إعجازاً، فلا يقدر أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، وإنَّ تحت كل حرف منه معاني لا يحاط بها كثرةً، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه (٢). وخصوصية القرآن التعبد بتلاوته لأن ألفاظه نازلة من الله تعالى فلا تدانيها خصوصية أخرى، لأن هناك ما هو نازل من السماء كالأحاديث القدسية، ولكنها ليست بقرآن، فلا خصوصية للتعبد بتلاوتها. وإن أخذنا بمضامينها حرفياً ولكنها لم تنزل بألفاظها المخصوصة لها كما هو شأن القرآن. والحديث النبوي نتعبد به أمراً ونهياً، وكان النبي ﷺ يرسل الحديث ويقول ويتبع ذلك أهله وأصحابه، ثم يتلو القرآن ويقرؤه فما اتفق يوماً أن تشاكل النصان أو تشابه القولان، ولو كان معنى القرآن ينقل إلى النبي وحيًا، أو وحيه ينقل إليه معنى، والنبي ﷺ يصوغه بلفظه ويعبر عنه بكلامه لاشتبه القرآن بالحديث والحديث بالقرآن من وجهة نظر بلاغية في الأقل بينما العكس هو الصحيح، فالخصائص الأسلوبية في القرآن تدل عليه، فكل له أسلوبه المتميز، ومنهجه الخاص حتى عرف ذلك القاصي والداني ممن آمن بالنبي ﷺ والقرآن وممن جحدهما. فالقرآن كلام الله، ومحمد ﷺ ينقله كما سمعه بلفظه الدال على معناه وبمعناه الذي نطق به لفظه، لا شيء من محمد ﷺ إلا النقل الأمين، والحديث كلام محمد ﷺ يتفوه به فيشرع ويحكم، لأنه المصدر الثاني بعد القرآن للشريعة الإسلامية قال تعالى:

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٣)

وثمة دليل قرآني في توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بعبارة (قل) في

(١) آل عمران: ١٠٨.

(٢) ظ: السيوطي، الاتقان: ١/١٢٨.

(٣) الحشر: ٧.

القرآن الكريم، وتكرارها فيه أكثر من ثلاثمائة مرة، تصريح وأي تصريح بأن النبي ﷺ «لا دخل له في الوحي، فلا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه، وإنما يلقي إليه الخطاب إلقاء، فهو مخاطب لا متكلم، حاك لما يسمعه، لا معبر عن شيء يجول في نفسه»^(١).

لهذا كان إذا نزلت عليه آية أو سورة، بل وجزء من آية، يدعو كتبه لتدوينها على الفور نصاً.

ولقد بهت العرب أمام ظاهرة الوحي القرآني، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وأئمة البيان والفن القولي، وتذرعوا للتشكيك فيها بمختلف الوسائل، فأثاروا الشبهات، وتعلقوا بالأوهام، فوصفوا النبي ﷺ بالضلال، والقرآن من ورائهم يناديهم بقوله:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَبْطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤)﴾^(٢).

وتداعوا مرة أخرى إلى افتراضات متناقضة، فقالوا أضغاث أحلام وقد أيقنوا بصحوة النبي ﷺ ويقظته، وردوه إلى الكذب والاختلاق وهم أنفسهم وصفوه من ذي قبل بالصادق الأمين، ونسبوا النبي ﷺ إلى الشعر، وقد علموا بأن النبي ﷺ أبعد ما يكون عن مزاج الشاعر وأخيلته، وما ترك في هذا المجال أثراً يركن إليه بهذه السمة، وقد عبر القرآن عن ذلك:

﴿قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾^(٣).

وما استقامت لهم الدعوى في شيء، ووصموه بالجنون:

﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾^(٤).

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ﴾^(٥).

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن: ٣٠.

(٢) النجم: ١ - ٤.

(٣) الأنبياء: ٥.

(٤) الحجر: ٦.

(٥) الدخان: ١٤.

وقد دلت الأحداث الاستقرائية، والسيرة الذاتية للنبي ﷺ على رجاحة عقله واتزانه في تصرفاته، وتأكد لهم افتراءهم بما شاهدوه من مجريات الأمور، وقد لبث النبي ﷺ بين ظهرائهم حقباً طويلة قبل البعثة فما مسكوا زلة ولا أدركوا غفلة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النكتة الدقيقة بقوله:

﴿فَكَذَّبْتَ بِكُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وترددوا بقول الكهانة من بعد الجنون، فرد افتراءهم القرآن بما أمره به:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾^(٢).

فما كان محمد ﷺ إلا بشيراً ونذيراً، وما كان الوحي إلا ذكراً للعالمين فأين هو من الكهانة؟

﴿وَلَا يَقُولِ كَاهِنٌ قَلِيلاً إِلَّا فِي نَذْرٍ﴾^(٣).

وحينما أعيتهم الحيلة، ووقف بهم المنطق السليم، انطلقوا إلى القول: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾^(٤).

شأنهم في هذا شأن من تقدمهم من الأمم مع أنبيائهم ورسولهم، حذو القذة بالقذة؛ وفي الادعاءات قال تعالى:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾^(٥).

وقد علموا جدياً؛ أن محمداً ﷺ في أصلته العقلية؛ أبعد ما يكون عن السحر والشعبذة والتمويه من قبل ومن بعد.

وتمسكوا بأوهن من بيت العنكبوت؛ فأشاعوا بكل غباء أن لمحمد ﷺ معلماً من البشر؛ وهو غلام رومي يحترف صناعة السيوف بمكة؛ فألقمهم القرآن حجراً بردهم رداً فطرياً:

(١) يونس: ١٦.

(٢) الطور: ٢٩.

(٣) الحاقة: ٤٢.

(٤) المدثر: ٢٤.

(٥) الذاريات: ٥٢.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

وأغلقت السبل كافة في الوجوه والألسن والأقويل، فرجموا بالغيب وتشبثوا بالطحلب، وحسبوا وجدان الضالة، فقالوا بما حكى الله عنهم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢).

وتماذى بهم القوم، ففصلوا بعد الاجمال، وأبانوا بعد الإبهام:

﴿وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَثَّلَ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾^(٣). وهكذا تبدو الحيرة مترددة بين عدة ادعاءات، هم أنفسهم يعلمون بمجانبتها للواقع المشهود، إذ لم يؤيدها نص استقرائي واحد في حياة محمد ﷺ.

ويبقى الوحي وحياً رغم كل هذه الأراجيف:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٤).

ويبقى القرآن مقترناً بظاهرة الوحي الإلهي.

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) الانعام: ٢٥.

(٣) الفرقان: ٥.

(٤) الشورى: ٧.

المحاضرة الثالثة:

ظاهرة الوحي والمستشرقون

من أبرز جهود المستشرقين عنايتهم الخاصة بترجمة القرآن الكريم إلى أمهات اللغات العالمية، والترجمة تحتاج إلى ذائقة فنية بارعة، وأصالة في الفكر، وإحاطة بصنوف البيان العربي، إذ ليس من اليسير أن ينبري أفراد أو جماعات، لغتهم الأصلية هي غير اللغة العربية، لترجمة أعظم نص عربي، اتسم ببلاغته الفائقة، وأقدس كتاب عند المسلمين رأوا إعجازه في نظمه وتأليفه، وسحره في أسلوبه وجودة تعبيره، لذا فالترجمة تعني تمرس المترجم بكثير من فنون البيان، وجملة من أساليب القول، واضطلاع في اللغة والبلاغة، وكفاية في المفردات المترادفة والمشتركة والمتضادة. وفي هذا الضوء تعتبر ترجمة القرآن من أعقد الدراسات القرآنية التي تحتاج إلى العلم والصبر والدقة والإحاطة.

وبمعاينة جهود المستشرقين في هذا المجال نجد ترجمة القرآن قد جاءت على نحوين: ترجمة كلية، وترجمة جزئية، ولا بد من الوقوف عند هاتين الظاهرتين لاستقراء موضوع الترجمة.

أولاً - الترجمة الكلية:

لقد حاول كثير من المستشرقين ترجمة القرآن ترجمة كلية من ألفه إلى يائه رغم كل الصعوبات اللغوية والزمنية، وقد وفق بعضهم في ذلك، وخاب البعض الآخر، وباستقراء الموضوع يبدو لنا أن بداية العمل في هذا الشأن ترجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي.

١ - ففي أوروبا تمت أول ترجمة للقرآن بين عامي (١١٤١ م - ١١٤٣ م)، إلى اللغة اللاتينية بتوجيه وبطلب من الأب: (بيتروس فينيرا

بيليس) (بطرس المبعجل) رئيس دير (كلوني) بفرنسا، وكانت مركزاً مهماً وكان ذلك على أرض أسبانية^(١).

ويعتقد الأستاذ (بلاشير) أن هذه الترجمة لم تكن أمينة أو كاملة النص^(٢).

وقد قام بهذه الترجمة (روبرت الرتيني)، و (هرمان الدلماشى الألماني)، وراهب اسباني عربي، ولم تنشر هذه الترجمة إلا بعد أربعة قرون^(٣).

وقد جاء في خطاب (بطرس) المكرم إلى القديس (برنار): قابلت (روبرت) وصديقه (هرمان الدلماطي)، بالقرب من (الأبرو) في اسبانيا، وقد صرفتهما عن علم الفلك إلى ترجمة القرآن باللاتينية، فأتماها عام ١١٤٣ م، وكانت أول ترجمة للقرآن إستعانا فيها باثنين من العرب، نشرها (ببلياندر) في ثلاثة أجزاء في (بال) عام (١٥٤٣ م)، وكانت (بال) من أسبق المدن السويسرية إلى نشر ترجمة القرآن، وقد أنجز ترجمته الثانية الأب (ماركوس الطليطلي) بتوجيه من الأسقف (روديك دي وادا)، في القرن الثالث عشر^(٤).

٢ - ونشر المستشرق الإيطالي (أريفانين) أول ترجمة من القرآن إلى الإيطالية، فلما دخلت الحروف الشرقية إليها، نشر فيها الساندرو (باجيني) أول طبعة من القرآن للنص العربي، (البندقية، ١٥٣٠ م)^(٥). وفي عام ١٥٩٤ م أصدر هنكلمان ترجمته للقرآن^(٦).

٣ - ثم ترجم القرآن إلى اللغة الألمانية من قبل (شنيجر النور

(١) ظ: رودى بارت، الدراسات العربية والإسلامية: ٩.

(٢) ظ: بلاشير، القرآن نزوله وتدوينه: ١٥.

(٣) ظ: الموسوعة العربية الميسرة، مادة: قرآن: ١٣٧٤، إشراف: محمد شفيق غربال، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة: ١٩٦٥ م.

(٤) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ١٢٤ و: ٨٧٧.

(٥) المرجع نفسه: ٣٥٧.

(٦) أبو عبدالله الزنجاني، تأريخ القرآن: ٩١.

مبرجي، (عام ١٦١٦ م)، وأعقبت ذلك ترجمة إلى الفرنسية بقلم (سيور دوريز) (باريس ١٦٤٧ م) وقد انتفع بهذه الترجمة: الكسندروس، أحد قساوسة كاريسبروك، حينما نقلها إلى الانجليزية (لندن، ١٦٤٩ م)^(١).

٤ - وفي إيطاليا يبدو أن الأب (دومينيك جرمانوس) (١٥٨٨ م - ١٦٧٠ م) قام بأول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية. وكان المستشرق الفرنسي (مارسل ديفيك) (ت: ١٨٨٦ م) أول من عثر عليها عام (١٨٨٣ م)^(٢).

٥ - وترجمة (جرمانوس) قد سبقت (ماداتشي) بثلاثين عاماً، إذ يوجد نص لاتيني للأب (ماداتشي) يعود إلى عام (١٦٩٨ م) في ترجمة القرآن، وقد أفاد من هذه الترجمة (ج سيل - Geo - Salee) الانجليزي (١٧٣٤ م - ١٧٦٤ م)^(٣).

وما تمتاز به ترجمة ماداتشي (١٦١٢ م - ١٧٠٠ م) أنه نشر القرآن متناً وترجمة إيطالية أيضاً مع شواهد من مصادر عربية لم ينشر معظمها حتى يومنا هذا (بادوري، ١٦٩٨ م)^(٤).

٦ - وقد قام جورج سيل (١٦٩٧ م - ١٧٣٦ م) بترجمة القرآن إلى اللغة الإنكليزية، وقد نجح في ترجمته، فذكرها (فولتير) في القاموس الفلسفي، وأعيد طبعها مراراً، وقد اشتملت على شروح وحواش ومقدمة مسهبة هي في الحقيقة بمثابة مقالة إضافية عن الدين الإسلامي عامة، حشاها بالإفك واللغو والتجريح، وقد نقلها إلى العربية: ابن الهاشم العربي (القاهرة، ١٩١٣ م)^(٥).

٧ - وقد صدرت الترجمة الروسية للقرآن في عام (١٧٧٦ م) ب (سنت بطرسبرج) (لينينجراد)^(٦).

(١) الموسوعة العربية الميسرة، مادة: قرآن.

(٢) نجيب العقيلي، المستشرقون: ٢٠٠ و: ٣٦١.

(٣) ظ: الموسوعة العربية الميسرة: مادة: قرآن.

(٤) ظ: نجيب العقيلي، المستشرقون: ٣٦٢.

(٥) المرجع نفسه: ٤٧١.

(٦) الموسوعة العربية الميسرة، مادة: قرآن.

٨ - بينما نجد أن أول ترجمة علمية إلى الروسية قام بها (سابلوكوف) (١٨٠٤ م - ١٨٨٠ م) (عام ١٨٧٨ م) ثم تكرر طبعها بين الأعوام (١٨٧٩ م - ١٨٩٨ م)^(١).

٩ - وفي هذه الأثناء توالى ترجمة القرآن ترجمة كلية إلى عدة لغات يمكن الإشارة إليها على الوجه التالي:

أ - الترجمة الفرنسية، سافاراي (١٧٨٣ م) وكازيميرسكي، (١٨٤٠ م)، (١٨٤١ م، ١٨٥٧ م). وقد اشترك المستشرق الفرنسي (أوكتاف بل) مع (سي محمد التيجاني) في ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية^(٢).

وهناك ترجمة فرنسية للقرآن الكريم تمتاز بالضبط والدقة للأستاذ إدوار مونتير، وقد تحدث عنها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي بما نصه: «كنت طالعت في مجلة المنار مقالاً للأمير شكيب أرسلان عن ترجمة فرنسوية حديثة للقرآن الكريم، وضعها الأستاذ إدوار مونتير. وقد قال عنها: أنها أدق الترجمات التي ظهرت حتى الآن وقد نقل عنها إلى العربية مقدمة هذه الترجمة. وهي في تأريخ القرآن وتأريخ سيدنا رسول الله، وقد نشرت في المنار.

فاقتنيتُ هذه الترجمة. فوجدتها قد أوفت على الغاية في الدقة والعناية. وقد ذيلها المترجم بفهرس لمواد القرآن مفصل أتم تفصيل»^(٣).

وقد قام الأستاذ بلاشير المولود: (١٩٠٠) بترجمة القرآن ترجمة جديدة إلى الفرنسية في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧ م - ١٩٥٢ م).

ب - الترجمة الألمانية، بويسن (١٧٧٣ م)، ثم حققها وأعادها ج. فاهل (١٨٢٨ م)، و ل. أوهللمان (١٨٤٠ م - ١٨٥٣ م).

(١) ظ: نجيب العقيقي، المرجع السابق: ٩٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٣.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقي، تفصيل آيات القرآن الكريم مقدمة الطبعة الثانية: ٨، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩ م.

ولا شك أن أجود الترجمات هي ترجمة الأستاذ فلوجل (١٩٤١ م).

يقول المستشرق الألماني المعاصر رودى بارت: «وقد ظهرت بين عامي (١٩٦٣ م - ١٩٦٦ م) ترجمة كاملة للقرآن بقلمى هي ثمرة اشتغال عميق بالنص القرآني استمرت سنوات طويلة، وتقصد هذه الترجمة إلى المساعدة على فهم القرآن فهماً تاريخياً، فهي تضع الأجزاء المختلفة على النحو الذي اعتقد أنها عنيت به عندما نطق بها النبي العربي. وكثيراً ما تتصف بالإيجاز والاقتضاب، وتضع هذه الاضافات بين أقواس حتى يفرق بينها وبين النص الأصلي»^(١).

ج - الترجمة الانجليزية. وقد ترجم ج. م. روديل القرآن إلى الانجليزية عام (١٨٦١ م)، وتمتاز هذه الترجمة بأن السور فيها مرتبة بحسب ترتيبها التاريخي على ما يدعي، وصدرت بعدها ترجمة ف. هـ. بالمو، اكسفورد، (١٨٨٠ م)^(٢).

وقد جاء مارمادوك وليم بكثول (١٨٧٥ - ١٩٣٦) وأعلن إسلامه، وقضى ثلاث سنوات في ترجمة معاني القرآن، قصد بعدها مصر لمراجعة ترجمته مع بعض العلماء، وتعد ترجمته من خيرة الترجمات، (١٩٣٠ م)^(٣).

وريتشارد بل، وهو من رجال الدين في بريطانيا، قد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن، وترجمته له (١٩٣٧ م - ١٩٤١ م) وإن لم يعرها الناس اهتمامهم، إلا أن جل غرضه منها تحليل السور المتفرقة بوضع قوانين النقد الأدبي لها كما هي الحال في التواليف الغربية للأدب العالي^(٤).

ومما لا شك فيه أن الجهود الانجليزية المتأخرة في الترجمة لها

(١) رودى بارت، المرجع السابق: ١١٩.

(٢) ظ: الموسوعة العربية الميسرة: مادة: قرآن.

(٣) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٦٩٣.

(٤) المرجع نفسه: ٥٢٨.

قيمتها الفنية، إذ لم يكتف بترجمة القرآن إلى الانجليزية بل تعدت ذلك إلى اللغات الإقليمية، فقد ترجم المسلم الانجليزي خالد شلدريك القرآن، إلى لغة الأسبرانتو عام (١٩١٤ م)^(١).

وقد كان البروفسور أ.ج. آربري المولود (١٩٠٥ م) دقيقاً حينما اعتبر ترجمته للقرآن تفسيراً لفظياً فسامها: القرآن مفسراً، وقد طبع في نيويورك (١٩٥٥ م) ولندن (١٩٥٩ م).

د - الترجمة السويدية، وقد نقل المستشرق السويدي تورنبرج (١٨٠٧ م - ١٨٧٧ م) القرآن إلى السويدية، وطبع في لوند، (١٨٧٤)، وأعقبه ستر ستين السويدي (١٨٦٦ م - ١٩٥٣ م) بترجمته إلى السويدية، وطبع في استوكهلم (١٩١٧ م)^(٢).

هـ - الترجمة الهندية، وقد قام المستشرق الهولندي الأستاذ فت (١٨١٤ م - ١٨٩٥ م) بترجمة القرآن إلى اللغة الهندية^(٣).

و - الترجمة الهولندية، قام المستشرق الهولندي كرامرز (١٨٩١ م - ١٨١٥ م) بنشر ترجمة القرآن إلى الهولندية، أمستردام - بروكسل، (١٩٥٦ م)^(٤).

ز - الترجمة الإيطالية المتأخرة، قام المستشرق الإيطالي برانكلي بترجمة القرآن من العربية إلى الإيطالية، ترجمة حرفية، روما (١٩١٣ م) ونشر فراكاسي، القرآن متناً وترجمة إيطالية في (٣٥٩) صفحة خلا المقدمة، ميلانو، (١٩١٤ م)، وأعقبهما الأستاذ بونللي (١٨٦٥ م - ١٩٤٧ م) بترجمة القرآن ترجمة حرفية بالإيطالية مع التفسير في (٥٢٤) صفحة وطبع مرتين، الأولى: نابولي، (١٩٢٩ م)، والثانية: ميلانو، (١٩٤٠ م)^(٥).

(١) ظ: الموسوعة العربية الميسرة: مادة: قرآن.

(٢) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٨٩٧.

(٣) المرجع نفسه: ٦٦٢.

(٤) المرجع نفسه: ٦٧١.

(٥) المرجع نفسه: ٣٨٣.

ولعلنا بما تقدم قد استقصينا الحديث عن أغلب وأشهر الترجمات القرآنية الكلية، ويستحسن الرجوع بالإضافة إلى ما سبق إلى ما ذكره شفلي في تأريخ القرآن في هذا المجال، وإلى قائمة بروكلمان في أحدث الترجمات للقرآن^(١).

ثانياً - الترجمة الجزئية:

أ - هناك جهود متناثرة في ترجمة القرآن جزئياً، باقتطاف بعض سوره، وإخضاعها إلى الترجمة في لغات شتى؛ ففي حروب بولونيا مع الأتراك اقتنى اندراي أكولوتوس (١٦٥٤ م - ١٧٠٤ م) نسخة من القرآن بترجمتين تركية وفارسية فترجمها، ولكنه لم يوفق إلى نشرها فاكتفى بنماذج منها، مرفقاً كل نص عربي بترجمة فارسية وتركية ولاتينية بعنوان: نصوص من القرآن مترجمة إلى أربع لغات، برلين، (١٧٠١ م)^(٢).

ب - وقد ترجم القرآن جزئياً البركازيميرسكي البولوني (١٨٠٨ م - ١٨٨٧ م) إلى الفرنسية ترجمة تعوزها بعض الأمانة العلمية وفهم البلاغة العربية^(٣).

ج - وقد ترجم عدة فصول من القرآن إلى الإسبانية المستشرق السويدي سترستين، ونشرها في مجلة العالم الشرقي (١٩١١ م)^(٤).

د - وقد نقل المستشرق الدانماركي (بول - Bull) عدة أجزاء من القرآن إلى الدانماركية فأظهر في ذلك سعة إطلاع على الإسلام^(٥).

هـ - وقد أورد الأستاذ بروكلمان قائمة ببعض الترجمات الجزئية تلحظ بالشكل التالي:

(١) ظ: كارل بروكلمان، تأريخ الأدب العربي: ١٤٢/١.

(٢) ظ: نجيب العقيلي، المستشرقون: ٨٢١.

(٣) المرجع نفسه: ٨٢٤.

(٤) المرجع نفسه: ٨٩٧.

(٥) ظ: بروكلمان، تأريخ الأدب العربي: ١٤٢/١.

لاهور ١٩٢٨ م	M. Alc	الانجليزية
١٩٣٠ م	لاماس	الفرنسية
لندن ١٩٣١ م. لاهور ١٩٣٥ م	Gr. Sarwar	الانجليزية
براغ ١٩٣٤ م ^(١)	أ. ر. نيكل	التشيكية

وفي هذا القدر مما ذكرناه حول ترجمة القرآن الكلية والجزئية نكون قد ألقينا مزيداً من الضوء على أجواء هذه الظاهرة.

(١) المرجع نفسه: ١/١٤٢ + الموسوعة العربية الميسرة: مادة: قرآن.

المحاضرة الرابعة:

ترجمة القرآن

من معالم جهود المستشرقين البارزة في مجالات الدراسات القرآنية :
نشر جملة نفيسة من الكتب، وتحقيق طائفة من المصادر التي تبحث في
القراءة والتفسير وعلوم القرآن، وقد جاءت هذه الذخائر محققة في أغلبها
على الوجه الأكمل، مما يكشف لنا عن صدق المعاناة، والصبر والجلد
والأناة، في إيصال النص للمتلقي كما تركه مؤلفه، وكما كتبه مصنفه، ولم
يكتف بهذا عند المستشرقين، بل توج العمل التحقيقي بفهارس وملاحق تنير
أمام القارئ الطريق في الافادة من النصوص.

أ - التحقيق :

والحق أن المانيا قد سبقت في هذا المجال سبقاً مجلياً، فنشرت لنا
من التراث القرآني على يد علمائها، ما نحن بحاجة ماسة إليه، وقد تكفل
القرن التاسع عشر بتأصيل هذا الجهد الاستشراقي، وإعطاء ثماره يانعة.

لقد قرر المجمع العلمي البافاري في ميونخ جمع المصادر الخاصة
بالقرآن الكريم وعلومه، وضبط قراءاته لنشرها، فتولى الأستاذ براجشتريسر
(١٨٨٦ م - ١٩٣٣ م) هذه المهمة الفريدة، وعاونه في بعضها الأستاذ أوتو
بريتسل (١٨٩٣ م - ١٩٤١ م). فقد انتدب المجمع المذكور بريتسل بعد
وفاة براجشتريسر لاستكمال هذا الجهد، فبادر من فوره إلى تصوير تلك
المصادر والمصاحف تصويراً شمسياً في عدة نسخ لتيسير الاطلاع عليها في
ميونخ، والحصول على صور منها، ثم تدوين كل آية من القرآن الكريم في
لوح خاص، يحوي متنوع الرسم في مختلف المصاحف، مع بيان قراءاتها
ومتعدد تفاسيرها .

- وقد انجلت هذه المهمة الخاصة عن نشر هذه الطائفة من المصادر في القراءة والتدوين وعلوم القرآن على الوجه الآتي:
- ١ - كتاب التيسير في القراءات السبع: لأبي عمر وعثمان بن سعيد الداني.
 - ٢ - كتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار، من كتاب النقط: للداني.
 - ٣ - كتاب مختصر الشواذ: لابن خالويه: المكتبة الإسلامية، مجلد ٧، ١٩٣٤ م.
 - ٤ - كتاب المحتسب لابن جنّي: وقد طبع بحروف لاتينية، منشورات المجمع العلمي البافاري، ميونخ، ١٩٣٣ م.
 - ٥ - غاية النهاية في طبقات القراء، لابن الجزري، المكتبة الإسلامية، مجلد ٨، (١٩٣٣ م - ١٩٣٥ م) ثم بالقاهرة.
 - ٦ - كتاب معاني القرآن للفراء النحوي.
 - ٧ - كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لأبي بكر الأنباري: إسلاميكا، ٦، ٢٣٤، ثم طبع بالقاهرة للمكتبة - الإسلامية^(١).
 - ٨ - ويبدو أن براجشتريسر وبريتسل، كانا على جانب كبير من الاهتمام بدراسة القرآن الكريم، ونشر ما يتعلق بأثاره، فقد اشتركا في نشر الجزء الثالث من تأريخ النص القرآني لنولدكه.
 - ٩ - ولقد نشر بريتسل بمعاونة إيزني: فصائل القرآن - وآدابه، لأبي عبيد القاسم بن سلام.
 - ١٠ - ومما تجدر الإشارة إليه إنّ لبريتسل بحثاً تتعلق في مخطوطات نادرة بعلوم القرآن، وتحقيقات في أهمية هذه الكتب، ووصفاً لمحتوياتها، وتعليقات على مناهجها.

(١) ظ: ترجمة بريتسل، بقلم: سيبتالر، المجلة الشرقية الألمانية، ١٩٤٢ م + المستشرقون:

فله في مجلة إسلاميكا :

أ - كتاب معاني القرآن لابن منظور (١٦/٦).

ب - كتاب تحليل القراءات السبع للشيرازي (١٧/٦).

ج - كتاب المشتبه في القرآن للكسائي (٢٤/٦).



ونضيف إلى ما تقدم حصره بالاشارة إلى أهم معالم النشر والتحقيق لجملة من المستشرقين من مختلف الجنسيات والهويات، ويتراوح ضبطها بين الدقة، وبين القبول بوجه حسن كالآتي:

١ - المستشرق الألماني فرايتاج (١٧٨٨ م - ١٨٦١ م) حقق ونشر بمجهوده:

أسرار التأويل وأنوار التنزيل لليضاوي، ليزيغ، ١٨٤٥.

٢ - المستشرق الانكليزي وليم ناسوليز (١٨٢٥ م - ١٨٨٩ م) حقق طيلة أربع سنوات: (١٨٥٦ م - ١٨٥٩ م)، الكشاف لجاد الله الزمخشري في ٤٨٥ صفحة.

٣ - المستشرق النمساوي شبرنجر (١٨١٣ م - ١٨٩٣ م)، حقق ونشر: الاتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي.

٤ - المستشرق الانكليزي السير وليم موير (١٨١٩ م - ١٩٠٥ م) حقق كتاب: شهادة القرآن لكتب أنبياء الرحمن، نشر (١٩٦٠ م).

٥ - المستشرق الأمريكي آرثر جفري، قام بتحقيق ونشر:

١ - كتاب المصاحف للسجستاني (مؤسسة دي خويه، ليدن، ١٩٣٧ م).

٢ - مقدمتان في علوم القرآن، لابن عطية ومجهول، طبع في دار الصاوي، القاهرة، ١٩٧٢ م.

إن هذه القوائم المتقدمة لا تمثل كل نتاج المستشرقين في عالم التحقيق، بل تمثل أبرز الأعمال وأهمها من خلال استقراؤنا فحسب.

ب - الفهرسة :

وأما فهرسة القرآن الكريم فقد ظهرت بشكلها البدائي في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حينما وضع المستشرق الانكليزي وليم بدويل (١٥٦١ م - ١٦٣٢ م) فهرساً للقرآن باللغة التركية، مع تعداد تفاسير القرآن، وطبع في ليدن، (١٦١٥ م)^(١).

أما فهرسة القرآن بإطارها العلمي المنظم فقد بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، وقد تأصلت - فيما وصل إلينا - عند المستشرق الألماني الأستاذ جوستاف فلوجل (١٨٠٢ م - ١٩٧٠ م) حينما ألف أول معجم مفهرس للقرآن الكريم في اللغة العربية، عني بألفاظ القرآن ومفرداته وأسماء:

(نجوم الفرقان في أطراف القرآن) وطبع لأول مرة عام (١٨٤٢ م) في ليزيخ، وقد كان هذا الكتاب نواة صالحة، بل أساساً محكماً، اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في وضع: (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) فتعقب عليه ما فاتته، واستدرك فيه ما خفي عليه من وجه الصواب^(٢). ولقد كان عمل الأستاذ فلوجل من أعمال المستشرقين الجلييلة حتى أننا لم نجد مثله في فهرسة مواد القرآن وألفاظه، حتى إذا جاء المستشرق الألماني مالير (١٨٥٧ م - ١٩٤٥ م) وجدناه قد استند على معجم فلوجل، فألف (دليل القرآن) وقد جمع فيه مفرداته وأفعاله حتى حروف الجر والعطف، وقد رقت فيه السور والآيات لهذه الغاية، وطبع للمرة الثانية في باريس (١٩٢٥ م).

ولقد قام المستشرق الفرنسي (جول لابوم) بوضع (تفصيل آيات القرآن الكريم) باللغة الفرنسية، وذلك بترتيب الآيات الخاصة بالموضوع الواحد في فصل واحد، فكأنه قد فرق القرآن نجوماً بحسب موضوعاته فجمعها موضوعاً موضوعاً، ولقد قام الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي

(١) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٤٦٥.

(٢) ظ: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المقدمة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٥ م.

صاحب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بترجمة هذا العمل الجليل إلى اللغة العربية بإشارة من السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، وقضى في ترجمتها سبعة شهور كاملة، كان نهايتها يوم (٨ مارس سنة ١٩٢٤ م) وطبعت عدة مرات، ولقد ذيلها بعد نفاذ الطبعة الأولى بفهرس تفصيلي وضعه المستشرق الفرنسي الأستاذ ادوار مونتيه وسماه بالمستدرك بعد أن نقله إلى العربية أيضاً، وقد وقر الأستاذ عبد الباقي رحمه الله للباحثين فرصة كبيرة حينما ترجم هذين العملين الخالدين، فكان أحدهما مكماً للآخر وان لم يستوعبا مواد القرآن وموضوعاته ولا آياته بعامة.

بل ندت بعض الآيات في بعض الأبواب التي بلغت العشرات ثم قسمت إلى مئات المفردات من الموضوعات القرآنية. ولقد طبع التفصيل والمستدرك حديثاً طبعة أنيقة ومنقحة بتاريخ ١٧/٣/١٩٦٩ بدار الكتاب العربي في بيروت وعليها اعتمدنا في وصفنا لها.

وهناك بحث عن مفردات القرآن للمستشرق الأمريكي تشارلز توادي المولود ١٨٦٣ م، نشر في مجلة عالم الإسلام ١٩٣٩.

ولما كان عمل الأستاذ فلوجل ومالير من بعده متكاملأ إلى حد كبير، فقد رأينا جهود المستشرقين في الفهرسة تنصب في قناة أخرى تمثل اتجاهاً يدور حول فهرسة ما ألف في القرآن تارة، وفي قرائه تارة أخرى، وتقتصر ثالثة على فهرسة بعض كتب التفسير بما يعتبر عملاً «بيلغرافياً» محضاً.

١ - فمن النوع الأول ما قام به المستشرق الانكليزي (ستوري) المولود ١٨٨٨ م فقد وضع فهرساً خاصاً بأدب القرآن لمكتبة ديوان الهند في لندن في ٤٥٠ صفحة، وطبع في كمبريدج عام ١٩٣٠ م.

وهناك بحث في هذا المجال للمستشرق الألماني الأستاذ هلموت ريتز، عن القرآن والحديث في مكتبات استانبول نشره في مجلة الإسلام الألمانية ١٩٢٨ م.

٢ - ومن النوع الثاني ما قام به الأستاذ براجشتريسر في وضع معجم

لقراء القرآن مع تراجمهم، وكان ذلك بحثاً رُقي به صاحبه إلى درجة الاستاذية عام ١٩١٢ م.

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، أن نجد بريسل قد صنف كتاباً عن (مراجع القرآن وعلومه)، ورسالة في (تأريخ علم قراءة القرآن)، والكتابان مرجعان في فهرسة مراجع القرآن وقراءاته^(١).

٣ - ومن النوع الثالث ما حققه المستشرق الألماني هوسلايتر إذ وضع فهرساً لتفسير الطبري (ستراسبورج - ١٩١٢ م). وترجم جوزيف شاختمقتطفات منه، ليذن ١٩٣٠ م (٧٨)^(٢).



ج - التدوين:

وفي مجال التدوين وحفظ النصوص نجد أن في مكتبة باريس الوطنية ١٦٥٤ قد تجمعت قطع من القرآن على الرق من القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة^(٣).

ويأشراف المجمع العلمي البافاري في ميونيخ تم تدوين كل آية من القرآن الكريم في لوح خاص يحوي، متنوع الرسم في متعدد المصاحف مع بيان قراءاتها وتنوع تفاسيرها^(٤).

وهناك بحث عن هذا الموضوع بعنوان (صحائف القرآن) للمستشرق الأمريكي: كومارازوامي (١٧٨٨ م - ١٩٤٧ م) تراه في نشرة المتحف الفني في بوسطن ١٩٢٠.

وهناك جهد تدويني من نوع خاص يدور حول فهرسة المخطوطات المتعلقة بالقرآن أو تفاسير أو علومه، ويمثل هذه الظاهرة اثنان من المستشرقين:

(١) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٧٦٠.

(٢) المرجع نفسه: ٧٢٩.

(٣) المرجع نفسه: ١٥٦.

(٤) المرجع نفسه: ٦٩١.

١ - فيراتشكوفسكايا، (ولدت ١٨٨٤ م)، زوجة المستشرق الروسي كراتشكوفسكي، فقد بحثت بأصالة عن نوادير مخطوطات القرآن من القرن السادس عشر، وقد كتب الأستاذ أمين الخولي عن هذا الجهد في بحثه الذي مثل به الجمهورية العربية المتحدة في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين، فقال: «قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثاً عن نوادير مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي، وإني أشك في أن كثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئاً عن هذه المخطوطات، وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها»^(١).

٢ - الأستاذ كارل بروكلمان (١٨٦٨ م - ١٩٥٦ م) الذي لخص لنا في صورة إجمالية أسماء من ألف بالقراءات، مستعيناً بما كتبه براجشترسر في كتابه: (تاريخ القرآن)، وما جاء في الفهرس، وما اطلع عليه هو شخصياً، ثم تدرج تاريخياً بإعطاء جدول بأبرز المفسرين ما بين القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مبتدئاً بابن عباس (ت: ٦٩ هـ - ٧٠ هـ) ومنتهاً بتفسير القرآن، لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم^(٢).



(١) أمين الخولي، مجلة الشبان المسلمين، القاهرة، عدد ديسمبر ١٩٦٠ م.
(٢) ظ: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/٤ - ١٩، ترجمة د. يعقوب بكرود. رمضان عبد التواب.

دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٧ م.

المحاضرة الخامسة:

التحقيق والفهرسة والتدوين

تميز طابع بعض الدراسات القرآنية عند المستشرقين بصيغة البحث الموضوعي لبعض الجزئيات في القرآن الكريم؛ وهذا المنهج سليم للغاية، ففي القرآن مئات الموضوعات المهمة، والبحث فيها جملة قد لا يعطي ثماره، ولا يفي حق كل موضوع، أما تجزئتها وسبرها وإحصاؤها في عدة أبحاث متكافئة، فمما ييسر للمتلقي فرصة الامعان الحثيث في كل جزء وحيثية من هذه الموضوعات المتشعبة.

وقد سبق لنا أن أكدنا على هذا الاتجاه في بعض الأبحاث التي ألقيناها على طلبتنا في الجامعة، وأوضحنا فيها أن هذا المنهج يعني أن يقوم جملة من المتخصصين على دراسة شذرات ونجوم من القرآن كل حسب تخصصه، فيجمع المتخصص مادة موضوع من مواضيع القرآن، ويستقصيها إحصاء لتكون هيكلًا مترابطاً يشكل وحدة موضوعية متكاملة واحدة، ثم يقوم بتفسيرها وبرمجتها بحسب منهجه^(١).

وأوضحنا أن هذه المهمة تتبلور قيمتها في بيان مواكبة القرآن للحياة، وتتأكد في مازجة الهدف الديني في القرآن للهدف الاجتماعي، وتبرز دور القرآن الكريم بإعطاء الحلول الإنسانية المناسبة لمشكلات الجيل في الحياة^(٢).

ويبدو أن هذا المنهج مما راق اتباعه لبعض المستشرقين فكتبوا في

(١) ظ: المؤلف، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم: المنهج الموضوعي.

(٢) ظ: المصدر نفسه: مرحلة التجديد.

ضوئه بعض الدراسات المناسبة وتجنبوا كثيراً من الأبحاث العسيرة لا سيما المتعلقة منها بأحكام القرآن بعامة، والأحوال الشخصية، فابتعدوا عن آيات الأحكام في التشريع، وعن الوصايا والموارث والعقود والحدود والديات، وقاربوا الموضوعات التي يجدر بهم تناولها بسهولة ومرونة.

ولدى التدقيق في هذا الجانب، وإلقاء الضوء الكاشف عليه برزت هناك عشرات البحوث المتنوعة، والدراسات المختلفة عن القرآن الكريم لجمهرة من المستشرقين، ويمكن تصنيف تلك الدراسات والبحوث إلى مجموعات على سبيل المثال لا الحصر:

أ - العقائد والديانات:

ويشتمل هذا الجزء من الموضوع على ما كتبه المستشرقون عن القرآن في عقائده، أو التشريع في آياته، أو المقارنة بين ديانة وديانة من خلاله، أو كشف العلاقات العامة بين شريعة وأخرى في ضوء معطياته، أو الإشارات إلى الديانات والعقائد السابقة في محتوياته.

١ - ومن السابقين إلى هذا الموضوع المستشرق الهولندي فت (١٨١٤ م - ١٤٩٥ م)، فقد كتب خمس دراسات عن: محمد والقرآن في مجلة الدليل الهولندية عام ١٨٤٥ م.

٢ - ثم وجدنا المستشرق الفرنسي جوزيف هاليبي (١٨٣٧ م - ١٩١٧ م) كتب موضوع (السامريون في القرآن)، المجلة الآسيوية، ١٩٠٨ م.

٣ - ثم كتب المستشرق الدانماركي: بدرسين ولد عام ١٨٨٣ م، (الدليل على اليوم الآخر في القرآن) ١٩١٢ م.

٤ - وبحث أدولف جروهمان في الصحيفة الشرقية لفينا عام ١٩١٤ م موضوع: (عيسى في القرآن).

٥ - للأستاذ بومشتارك المستشرق الألماني المولود عام ١٨٧١ بحثان في علاقة الإسلام بغيره من الديانات هما:

أ - النصرانية واليهودية في القرآن، مجلة الإسلام، ١٩٢٧ م.

ب - مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن، مجلة الشرق

المسيحي، ١٩٥٣ م^(١).

٦ - وللمستشرق الإيطالي جويدي (١٨٨٦ م - ١٩٤٦ م): (شرح المعتزلة للقرآن)، روما ١٩٢٥ م.

٧ - وفي الكلاميات قام الفونس منغنا (١٨٨١ م - ١٩٣٧ م) بنشر أخبار المتوكل بخلق القرآن متناً وترجمة انجليزية، مانشستر، ١٩٢٢ م - ١٩٢٣ م.

٨ - وذكر بروكلمان ثلاثة مباحث تتعلق بذات الموضوع وهي:

أ - طابع الانجيل في القرآن بقلم ولكر ١٩٣١ م.

ب - عناصر نصرانية في القرآن بقلم اهرنس (د.ت).

ج - مجادلة المشركين في القرآن، آتجهانسن، ١٩٤٣ م^(٢).

٩ - وقد ألف يوزف كورت ذولفرنك عام ١٩٣٤ م كتابه القيم: (إشارات إلى صيغ تشريعية عربية قديمة في القرآن).

١٠ - وألف اليونوره هونز عام ١٩٣٩ م: (إشارات قرآنية إلى الثقافة المادية للعرب الأقدمين).

١١ - وكتب ي. ريخلين: (الشرع في القرآن)^(٣).

١٢ - وكتب المستشرق الهولندي: فان جنيب: (إبراهيم في القرآن)، مجلة العالم الإسلامي (١٩١٢ م).

١٣ - وكتب المستشرق الانكليزي: ت. بوركهارت: (التوراة والإنجيل والقرآن).

١٤ - وبحث المستشرق الهولندي آيتما (ولد - ١٩١٠ م) عن: (القرآن)، (١٩٥٢ م).

(١) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون، الصفحات: ٦٢٢، ٢١٩، ٧٥٧.

(٢) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١٤٣/١.

(٣) ظ: دودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية: ٧٨.

١٥ - بحث جوتين (الصلاة في القرآن)، (١٩٥٥ م).

١٦ - وأخيراً نجد المستشرق الانجليزي ريتشارد بل، وهو من رجال الدين قد صرف سنين كثيرة في دراسة القرآن وتاريخه دراسة وافية متوالية وأول كتبه عنه أكد فيه العلاقات المسيحية بالنبي^(١).

ب - الفن القصصي في القرآن:

وهو يدور حول قصص الأنبياء والأمم الغابرة، والقرون الماضية، وأسلوب القصة وعرضها، وأهداف القصص وثمارها، وقد بدأ متأخراً بالنسبة لغيره من البحوث، فالمستشرق الألماني هوروفيتش (١٨٧٤ م - ١٩٣١ م) تحتوي بحوثه القرآنية على طائفة كبيرة من الملاحظات والمعلومات الصائبة، والجزء الأول منها يعالج النصوص القصصية في القرآن ويقسم كلامه إلى: عموميات وشكليات، أساطير رادعة، قصص الأنبياء والصالحين، النبوة في القرآن، والجزء الثاني: الأسماء الاعلام في القرآن^(٢).

ويورد الأستاذ بروكلمان بعض العناوين البارزة لموضوعات كتبت في قصص القرآن، وهي تاريخياً كما يلي^(٣):

- ١ - (الهجادة في قصص القرآن) بقلم سيجار، ليزيغ ١٩٠٧ م.
 - ٢ - (مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء) بقلم: سايدر سكاي، باريس، ١٩٣٢ م.
 - ٣ - (القصص الكتابي في القرآن) بقلم: سباير، جريفنا ينخن، ١٩٣٩ م.
- وبعد هذا نجد المستشرق المجري بيرنات هيللر، (١٨٥٧ م - ١٩٤٣ م) يتخصص تقريباً في جزء من قصص القرآن، فينشر بحثاً في مجلة الفصول بعنوان:

(١) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٦٧٧، ٥٢٨.

(٢) ظ: دودي بارت، المرجع السابق: ٣٩.

(٣) ظ: بروكلمان، المرجع السابق: ١/١٤٣ - ١٤٤.

- أ - (قصة أهل الكهف) عام (١٩٠٧ م).
ب - (عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية)، ١٩٢٨ م.
ج - (قصص القرآن)، عالم الإسلام، (١٩٣٤ م)^(١).



ج - فقه اللغة العربية في القرآن:

ويدور هذا الجزء من البحث حول الاشتقاق وأصول الكلمات، وبعض المصطلحات، وجزء من المفردات، وإشارة إلى اللهجات في القرآن الكريم، وأبرز ما لاحظناه ووصل إلينا إدراكه يمكن أن يشار إليه على النحو التالي:

- ١ - كتب فرانكيل الألماني (١٨٥٥ م - ١٩٠٩ م) رسالته للدكتوراه بعنوان (الكلمات الأجنبية في القرآن)، ليدن (١٨٧٨)^(٢).
- ٢ - وكتب المستشرق النمساوي كارل فولليرس (١٨٥٧ م - ١٩٠٩ م) موضوعاً بعنوان: (القرآن بلهجة مكة الشعبية).
- ٣ - وكتب المستشرق الألماني كارل هنريخ بيكر (١٨٧٦ م - ١٩٣٣ م)، (قواعد لغة القرآن في دراسات نولدكه)، مجلة الإسلام (١٩١٠ م).
- ٤ - وكتب الأستاذ مرجليوث (١٨٥٨ م - ١٩٤٠ م) موضوعاً بعنوان، (نصوص القرآن) مجلة العالم الإسلامي، (١٩٢٥ م).
- ٥ - وكتب يوزف هوروفيتش (١٨٧٤ م - ١٩٣١ م) مقالاً بعنوان: (الأسماء الأعلام اليهودية في القرآن - مشتقاتها) في عام (١٩٢٥ م)، وله أيضاً: (اشتقاق لفظ القرآن)^(٣).
- ٦ - وفي روسيا قام كاشتاليفا (١٨٩٧ م - ١٩٣٩ م) بكتابة تقارير إلى

(١) ظ: نجيب العقيقي، المرجع السابق: ٩١٠.

(٢) المرجع نفسه: ٧١٩.

(٣) ظ: دودي بارت، المرجع السابق: ٣٩.

مجمع العلوم في مصطلحات: أناب، أسلم، أطاع، شهد وحنف في القرآن، وله (مصطلحات القرآن في ضوء جديد) (١٩٢٨ م)^(١).
٧ - وكتب المستشرق الألماني كاله، (ولد: ١٨٧٥ م) بحثاً بعنوان: (القرآن والعربية)، ذكرى جولد سهير، (١٩٤٨ م).



د - بلاغة القرآن:

ويتناول هذا الجزء من الموضوع بعض السمات البلاغية، والمظاهر الاعجازية للقرآن الكريم، وما يدور حول هذا الفلك، وأهم ذلك البحوث التالية:

- ١ - بيان القرآن بقلم: هـ. و. ستانتون، (١٩١٩ م).
- ٢ - سحر الآيات القرآنية بقلم: كريستنس، (١٩٢٠ م).
- ٣ - الإعجاز في القرآن بقلم: روبسون، صحيفة جمعية جلاسجو، (١٩٢٩ م / ١٩٣٣).
- ٤ - حول التشبيه والتمثيل في القرآن، بحثان مستقلان للأستاذ بول، كوبنهاكن، (١٩٢٣).
- ٥ - كسب واكتسب ومعناهما المجازي في القرآن، بونيشي، مجلة الدراسات الشرقية (١٩٥٥ م).



هـ - بحوث أخرى:

وهناك بحوث مختلفة أخرى في الدراسات القرآنية تدور حول علاقته بالإنسان والكون والحياة والطب والفلسفة، وقد يتحدث بعضها عن أصول التفسير وعلوم القرآن، ونشير هنا إلى أهمها:

(١) ظ: نجيب العقيقي، المرجع السابق: ٩٤٥.

كتب عن عموم القرآن تحت لفظ «قرآن» كل من:

١ - ياكوب بارت (١٨٥١ م - ١٩١٤ م) في مجلة الإسلام، (١٩١٥ م - ١٩١٦ م).

٢ - فلهاوزن (١٨٤٤ م - ١٩١٨ م) في المجلة الشرقية الألمانية (١٩١٣ م).

٣ - لاثور من الآباء اليسوعيين، دراسة عن القرآن، الحضارة الكاثوليكية (١٩٤٥ م).

٤ - كالة، صحيفة دراسات الشرق الأدبي (١٩٤٩ م).

٥ - بوهل (١٨٥٠ م - ١٩٣٢ م) القرآن، دراسات هربث، (١٩٢٦ م).

٦ - بالمر، دراسة عن القرآن، نشرها نيكل، صحيفة الجمعية الشرقية الأمريكية، (١٩٣٦ م)^(١).

٧ - شبيتالير (ولد: ١٩١٠ م) القرآن، مؤتمر المستشرقين، (١٩٤٠ م).

وعاد إلى الموضوع نفسه، في دراسات تشودي، (١٩٥٤ م).

وهناك بحوث متفرقة عالجت مختلف القضايا القرآنية نشير إليها فيما يلي:

١ - كارلو نالينو، (منتخبات من القرآن)، ليزيخ (١٨٩٣ م).

٢ - هور سفيلد، (بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره)، لندن (١٩٠٢ م).

٣ - تاسدول، (المصادر الأصلية للقرآن)، لندن (١٩٠٥ م).

٤ - أوبتز، (الطب في القرآن)، (١٩٠٦ م).

(١) المرجع نفسه: ٤٨٣.

- ٥ - فيشر، (تفسير القرآن)، الدراسات الشرقية لنولدكه، (١٩٠٦ م).
- ٦ - د. ستيل، (المثون في بعض أجزاء من القرآن)، مجلة الجمعية الآسيوية، (١٩٢١ م).
- ٧ - ريتشارد هارتمان، (تفسير القرآن)، الآداب الشرقية، (١٩٢٤ م).
- ٨ - ريتشارد بل، (المتشابه في القرآن)، الآداب الشرقية، (١٩٢٤ م).
- ٩ - فرانكل، (نشأة الإنسان كما في القرآن)، براغ، (١٩٣٠)^(١).
- ١٠ - كارلو نالينو (نصوص ماراتشي من القرآن) لنشاي (١٩٣٢ م).
- ١١ - رفلين، (القانون في القرآن)، (١٩٢٧ م - ١٩٣٤ م).
- ١٢ - جاك جوميه: (نصيب القرآن من الحياة اليومية بمصر)، مجلة معهد الآداب العربية في تونس عدد (١٥/١٩٥٢ م) وله أيضاً (الاتجاه الحديث لتفسير القرآن بمصر)، (١٩٥٤ م).
- ١٣ - وبمعاونة المستشرق باريس كتب المستشرق الفرنسي جان كانتينو (١٨٩٩ م - ١٩٥٦ م) بحثاً في: (تلاوة القرآن في دمشق والجزائر) حوليات معهد الدراسات الشرقية، باريس (١٩٤٢ م / ١٩٤٧ م)^(٢).
- ١٤ - وكتب المستشرق الفرنسي جريفو: دراسة آية من القرآن، مجلة الشرف المسيحي، (١٩١٤ م).
- ١٥ - وكتب المستشرق الفرنسي، بلاشير (المولود ١٩٠٠ م): (نبذة عن النفس في القرآن)، الساميات (١/١٩٤٨ م).
- ١٦ - وكتبت المستشرقة الإيطالية المعاصرة فرجينيا فاكا: (آيات من القرآن)، فلورنسا (١٩٤٣).

(١) ظ: في جزء من هذه البحوث، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/١٤٣.

(٢) ظ: نجيب العقيقي، المستشرقون: ٢٨٣.

١٧ - وللمستشرق الأمريكي آرثر جفري عن نصوص القرآن الكريم وقراءاته، دراسات غزيرة أهمها:

أ - القرآن، الصحيفة الأمريكية للغات والآداب السامية، (١٩٢٤ م).

ب - القرآن، عالم الإسلام، (١٩٤٢ م).

ج - القرآن، مجلة الشرق الحديث (١٩٣٢ م).

د - القرآن، مجلة الشرق الأوسط (١٩٤٧ م). وله المباحث التالية

فيما يتعلق بالقراءات:

أ - نصوص من القرآن، عالم الإسلام (١٩٣٥ م).

ب - أبو عبيدة والقرآن، عالم الإسلام (١٩٣٨).

ج - دراسة عن مختصر شواذ القراءات لابن خالويه، الدراسات

الإسلامية، (١٩٣٨ م).

د - قراءة زيد بن علي، مجلة الدراسات الشرقية (١٩٣٧/١٩٤٠ م).

هـ - (الفاحة) عام (١٩٣٩ م).

و - وبمعاونة من لسون: طريقة كتابة القرآن في سمرقند، الصحيفة

الأمريكية الشرقية، (١٩٤٢ م).

هذه خلاصة عن أهم ما وصل إلينا من الدراسات الموضوعية

المتنوعة في القرآن للمستشرقين.

المحاضرة السادسة:

الدراسات الموضوعية في القرآن الكريم

١ - طبيعة الفهم الاستشراقي للقرآن:

لعله من المفيد حقاً أن يعقب عرضنا وتحليلنا لجمهرة من جهود المستشرقين في الدراسات القرآنية تقديم ونقد منهجي لتلك الجهود بإلقاء الأضواء على أبرزها شيوعاً وألمعها في الميدان انتشاراً، ففي الوقت الذي نشاهد فيه الجهد الموضوعي ينصب على تأريخ القرآن نجده متضاهلاً في بلاغة القرآن، في حين نلمس المحاولات جادة إلى ترجمته لأغلب اللغات الحية في العالم، مضافاً إلى تحقيق طائفة من أروع ما أُلّف في علوم القرآن ومعانيه وقراءاته والتفاسير، وقد نلمس فهماً مغلوطاً لمضامين القرآن، وتعصباً ظاهراً لا يستند إلى برهان نصي أو تأريخي، وقد نبهر بإنجازات يعسر توافرها بجهد شخصي، وقد نعجب بالتأكيد على جزئيات قد لا تهتم المسلمون، وقد تغفل موضوعات لها الأثر الكبير في المجال العقائدي إلى جانب اهتمام في نشوء اللغة وفقه العربية وموافقة كتب العهدين أو مخالفتها.

إن الفهم الذي عالج المستشرقون القضايا القرآنية يبتعد كثيراً عن الفهم الذي نعالجها به نحن، فالدراسات البيغرافية هدف مركزي لديهم، وضبط الوقائع التاريخية مهمة جديدة بالبحث، واختلاف القراءات ظاهرة تستأهل العناية، وكيفية الوحي قضية تثير الشكوك أحياناً، وكتابة القرآن وتدوينه مسألة علمية دقيقة.

أما نواحي الإعجاز فهو مما يخص المسلمين، وقضايا البلاغة شؤون عربية قد لا يحسنها غير العربي الأصيل، وجرس الألفاظ لا تعيها إلا أذن

بدوية، والالتفات من الفنون البديعية التي ترتبط بالبلاغة العربية، والتفسير الجزئي أو الكلي أو الموضوعي، لا سبيل له في مفهوم المستشرقين، لأن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع للمسلمين لا للمستشرقين.

ومع هذا التفاوت بين الفهم الاستشراقي للقرآن، وواقع الفهم الإسلامي له، تستوقفنا كثرة هذه البحوث القيمة في الموضوع، وتشعب مفرداتها بالشكل الذي يثير الدهشة في أغلب الأحيان.

المستشرق يفهم من القرآن أنه غير مجرى الحياة العامة والخاصة في الجزيرة العربية والعالم، فما هي أسباب ذلك وما هي مؤثراته، هل هي القوة والسيف؟ الخلق والمحبة؟ الرسالة والتوجيه؟ أم ماذا؟

العالم الفرنسي غوستاف لوبون مثلاً - أخرج في عام ١٨٨٤ م كتاب (حضارة العرب) فخصص الفصل الثاني من الباب الثاني منه لدراسة القرآن الكريم، وبعد أن أعطى خلاصة مركزة عن جمع القرآن، وقربه من التوراة والانجيل، وقياسه بكتب الهند الدينية، وتعرضه لخلق الدنيا، وصفة الجنة والنار، ومسامحة اليهود والنصارى، وفلسفة القرآن وأثرها في انتشاره في العالم، والتوحيد المطلق في القرآن، ووضوح مذاهب القرآن، وروح العدل والاحسان في القرآن وسبب انتشاره السريع، وتضامن الأمم الإسلامية بفضل القرآن، وخطأ المؤرخين في بيان أسباب انتشار القرآن عن طريق القوة^(١).

نجده يصرح بأن القرآن لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، لأن الأديان لا تُفرض بالقوة.

وفي قضية أخرى مسلمة عند الباحثين العرب في نظم القرآن، وجودة تركيبه، وحسن تأليفه، نراه يرتكب خطأ فاحشاً باعتباره القرآن قليل الارتباط، خالياً من الترتيب، فاقد السياق كثيراً^(٢).

ويعود سبب هذا الخطأ الفاحش بطبيعة الحال إلى جهله غير المتعمد

(١) ظ: لوبون، حضارة العرب: ١١٧ - ١٢٩.

(٢) المرجع نفسه: ١١٧.

بكنه النظم القرآني، وارتباط الآية بما قبلها، وما بعدها، وانتهاء الموضوع للبدء في موضوع آخر، ومواكبة الغرض الفني للغرض الديني بلاغياً وتشريعياً، ورقة الالتفات من الغيبة إلى الحضور، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الأفراد إلى الجمع وبالعكس، ومن المضممر إلى المظهر، مما لا يكاد يحسن فهمه الدقيق إلا العربي المحض، أو من تمرس بلغة العرب ذوقاً ولساناً وإحاطة.

والأستاذ بول يستغل نصاً من النصوص القرآنية في إدانة اليهود بأنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء / ٤٦) ليبيني حكماً طائشاً على إدراك خاطيء فيعتبر التحريف تغييراً مباشراً لصيغة مكتوبة في القرآن^(١).

وقد اشتمل تعصبه الفاضح على ألفاظ تجريحية أُلصقت بالرسول الأعظم ﷺ دون مسوغ لها على الإطلاق.

ويثير مسألة الناسخ والمنسوخ وسيلة يتذرع بها خصوم النبي للقول بالتحريف.

ويحاول الدس والافتراء لتشتيت شمل المسلمين من خلال هذا المنظور الهزيل الذي لا يوافق عليه حتى المستشرقون^(٢).

وتكاد أن تتفق كلمة المستشرقين وعلماء الغرب المنصفين ممن لهم دراسات في هذا المجال - وهم لا يؤمنون بكون القرآن منزلاً من الله - على صحة نقل القرآن وانتهائه بنصه إلى النبي محمد ﷺ، وهناك بضع شهادات لكبار العلماء من المستشرقين تؤكد أن القرآن هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصه محفوظاً من التحريف، من بين كتب الديانات جميعاً، وأنه لم يتطرق شك إلى أصالته، وأن كل حرف نقرأ اليوم نستطيع أن نثق بأنه

(١) ظ: دائرة المعارف الإسلامية الألمانية: ٦٠٢/٢ - ٦٠٨.

(٢) ظ: فيما سبق: تاريخ القرآن: فقرة رقم: ٨.

لم يقبل أي تغيير من يوم نزوله^(١).

وقد أورد الأستاذ أبو الحسن الندوي جملة من نصوص المستشرقين في الموضوع^(٢).

وقد زيف الإمام الخوئي دعاوى القول بالتحريف، ودحضها جميعاً ببراهين وأدلة رصينة لم يسبق إليها من ذي قبل^(٣).

بينما نجد الأستاذ نولدكه في تأريخ القرآن يخالف جملة وتفصيلاً فكتابه هذا بالإضافة إلى ما سبق بيانه في مبحث تأريخ القرآن - يفهم فيه من القرآن ما لا يفهمه السذج أو المتعصبون، يفهم منه أنه كتاب سماوي وتراثي بوقت واحد ويجب أن يبحث من وجوه شتى، وقد اعتبره بحق أبو عبدالله الزنجاني من أهم ما ألفه الأفرنج في تأريخ القرآن من نواح شتى بما يشهد بتضلّعه وإطلاعه الواسع، كما بحث عن حقيقة الوحي والنبوة، وشخصية النبي ﷺ ونزول القرآن، وتأريخ السور مكّيّها ومدنيّها.

وقد سلك في كشف تأريخ السور مسلكاً قوياً يهدي إلى الحق أحياناً، فإنه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النبي ﷺ وعلم تأريخها كحرب (بدر) و (الخنديق) و (صلح الحديبية) وأشباهها من المدارك لفهم تأريخ ما نزل من القرآن فيها، وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتأريخ آياته.

فيقول في الخطابات الواردة في الآيات بلفظ (يا أيّها الناس) والشدة في الإنذار، نزلت في أول النبوة، وقلة عدد المسلمين، والخطابات بلفظ: (يا أيّها الذين آمنوا)، وآيات الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين.

وهو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تأريخ القرآن. وفي عين الحال يأخذ من مجموعها ما يضيء

(١) غانم قدوري، محاضرات في علوم القرآن: ٧٤.

(٢) الندوي، النبي الخاتم: ٣٠ - ٣١.

(٣) الخوئي، البيان في تفسير القرآن. موضوع: التحريف.

فكره، ويرشده إلى تأريخ السور والآيات ونظمها أحياناً^(١).

ومن أروع ما حققه الأستاذ نولدكه في كتابه (تأريخ القرآن) وأشار إليه استقصاءه لتأريخ نزول القرآن معتمداً على ما جاء بكتاب: أبي القاسم عمر ابن محمد بن عبد الكافي في الموضوع (من علماء القرن الخامس الهجري)، وذكر أن كتاب أبي القاسم موجود في مكتبة (God Lygd 674 Warn) ثم تقسيمه ذلك إلى ما نزل من القرآن على النبي ﷺ في مكة وإلى ما نزل عليه في المدينة.

ونولدكه وان نقل أغلب ذلك عن كتاب أبي القاسم إلا أنه حققه ونشره ودلنا بعد ذلك على نسخة الكتاب.

وقد أحسن أبو عبدالله الزنجاني صنفاً بنشر ما اعتمده نولدكه، وما استخرجه هو بالاستعانة بكتابي «نظم الدرر وتناسق الآيات والسور» لإبراهيم بن عمر البقاعي، و «الفهرست» لابن النديم، وقد بوب ذلك في فهرس منسقة دقيقة استغرقت أكثر من عشر صفحات في كتابه^(٢).

وكان مما اجتهد فيه نولدكه ترتيبه للقسم المكي من القرآن وحصره بخمس وثمانين سورة وترتيبه للقسم المدني منه وحصره للمدني بثمانين وعشرين سورة^(٣).

والغريب أن يكون ما توصل إليه نولدكه بعد البحث والتمحيص والمقارنة قد جاء على لسان ابن عباس بما حدث به ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس قال: نزلت بمكة خمس وثمانون سورة ونزلت بالمدينة ثمان وعشرون سورة^(٤).

ولم يذكر نولدكه الفاتحة لا في المكي ولا في المدني، ولعله متوقف فيها باعتبارها في نظرة مكية، مدنية، فتمت بذلك سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة.

(١) الزنجاني، تأريخ القرآن: ٩٢ - ٩٣.

(٢) المرجع السابق: ٤٩ - ٦١.

(٣) نولدكه، تأريخ القرآن: ٥٨/١ الطبعة الثانية.

(٤) ابن النديم، الفهرست: ٢٦.

وهو يضع السورة بموقعها التاريخي في النزول، فيبدأ بسورة العلق باعتبارها أول ما نزل من القرآن ثم سورة القلم وهي التي تليها في النزول وهكذا يتبع السور تاريخياً حتى ينتهي بآخر ما نزل بالمدينة المنورة.

ويبدو لي أن مباحث نولدكه في تأريخ السور هي أنفس ما جاء في كتابه تأريخ القرآن.

وقد كان المستشرق الانكليزي (أدوارسل) في كتابه (التطور التاريخي للقرآن) موضوعياً في بحث المكي والمدني وكتابة القرآن وتدوينه. واستفاد بما سبق إليه نولدكه. وقد وثق الأستاذ (كارل بروكلمان) المصحف العثماني، وذهب إلى رأي قيم في القراءات بأن الكتابة فتحت مجالاً لبعض الاختلاف في القراءات، فاشتغل القراء على هذا الأساس بتصحيح القراءات^(١).

ولا شك أن ما كتبه المستشرق الفرنسي الأستاذ (بلاشير) في تأريخ القرآن، بنيته وتكوينه، ورسالته في مكة ورسالته في المدينة والواقعة القرآنية وعلوم القرآن يعتبر من أبرز الجهود الاستشراقية بعد جهود نولدكه، وقد أفاد منه كثيراً لا سيما في تقيده بالمرحلة الزمنية لتأريخ نزول السور القرآنية.

وقد كانت الذائقة العلمية رصينة قيمة عند (بلاشير) لا سيما اعترافه بحيرة غير العربي عند فهم القرآن^(٢).

إن هذا الفهم المتفاوت عند هؤلاء المستشرقين يعود إلى العنصر النفسي الأغلب في شخصية كل منهم. فمن اتجه اتجاهاً موضوعياً كان ما قدمه موضوعياً، ومن كان ذا هوى أو تعصب أو فرية أشبع ذلك في بحوثه.

وناحية أخرى مهمة في مفارقات الفهم الاستشراقي، تنبعث من زاوية عقيدية. فالمستشرق قد لا ينظر النص القرآني من كونه نصاً حضارياً، بينما

(١) ظ: بروكلمان، تأريخ الأدب العربي: ١٤٠/١.

(٢) ظ: فيما سبق: تأريخ القرآن: فقرة رقم ٧.

ينظره المسلم نصاً مقدساً، ولا يمكن أن نتطلب من مستشرق أن يرى القرآن بعين المسلمين، فلا نحمله أكثر من مهمته الأكاديمية، فقد يتهاون بعض المستشرقين بأقدس جانب من القرآن ولا يراه تهاوناً، وقد يقصر في عرض وجهة نظر دقيقة ولا يجده تقصيراً، وقد يطنب في نواح لا تستدعي اهتماماً جدياً في نظرنا، ومع ذلك رأينا البعض الآخر يعامل القرآن معاملة تفوق معاملته للتوراة والانجيل وان كان يهودياً أو مسيحياً، معتبراً القرآن من المقدسات الإلهية الكبرى، كما هي الحال عند المتورعين من المسلمين.

وفي هذا الضوء يجب أن يكون الباحث منصفاً في التقويم والجرح والتعديل، ولا يتطلب من الحركة الاستشراقية أكثر مما تدعيه هي لنفسها، أو أمرن مما تسمح به لها الطقوس الدينية المتداولة، وهذا لا يعني أن نغض طرفاً عن الأخطاء الطائفة إن وجدت، أو النزاعات المتطرفة ان كشفت، ولا نستتر على النيات المشبوهة الأحكام، ولا نقف موقف المتسامح من القرار اللاموضوعي، ولكن علينا أن لا نتمحّل فنتصور المستشرقين أتقياء بررة، فنحملهم أكثر من طاقاتهم المتعارفة، ولا نتغطرس فنجعلهم مثلاً للأنانية، فهم بشر، والبشر فيه الصالح والطالح، وهم ملتزمون بعقائد معينة، قد يصاحب التزامهم هوى، وقد تفرض النفوس الموضوعية.

إن الفهم الاستشراقي للقرآن قد يختلف أحياناً عن فهمنا له، لأسباب متأصلة، تملئها ظروف نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وقد تملئها نزعات عدائية حيناً، وتبشيرية حيناً آخر، وهنا يكمن الخطر المتفاقم إذ قد يشدُّ المستشرق في هذه الأحوال عن الصواب، وهنا يعامل النص العلمي بمنظور اليقظة والحيطه والحذر إذ قد يتجنى على العلم والحق.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا له، لهموم علمية وأكاديمية تعتبر أجدى نفعاً عندهم وأكثر تحصيلاً مما هي عندنا.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا له لأنهم لا ينظرون إلى القرآن نظرة تقديس نظرتهم إلى التوراة والانجيل، فيكون التقصير مفروضاً من داخل النفس الاستشراقية.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا له لأنهم يرون أن القرآن كتاب ثقافي حضاري يدرس من هذا الجانب، ولا يعالج منه ما له صلة بالوحي أو الغيب، وإذا عولج هذا الجانب فقد يعالج معالجة من لا إيمان له به، ولا ركون إليه، وهي قضية أخرى.

٢ - التوثيق من ينابيع الأولى :

لمسنا فيما سبق أن الطابع العام لدى المستشرقين العلميين هو الدقة والضبط وهما يشكلان الركن الأساسي في الجهد الاستشراقي، وفي هذا الضوء وجدنا العناية فائقة بأصول القرآن تدويناً وكتابة وفهرسة وتحقيقاً ونشراً وترجمة وتعقيباً باعتبار ذلك جميعاً من الينابيع الأولى لتوثيق النص القرآني والمحافظة عليه من الضياع، ولقد كانت مقررات المجمع العلمي البافاري في ميونيخ بجمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم، وضبط قراءاته المختلفة، وعهدته بذلك إلى الأستاذ (براجشتراسر ١٨٨٦ م - ١٩٣٣ م) ومن بعده إلى المستشرق الألماني (أوتوبريتزل) أستاذ اللغة العربية في جامعة ميونخ^(١).

فقد وجدنا بريتلز متفتح الأفق، جدي المبادرة، عملي التنفيذ فكان أول ما بدأ به أن بعث بخطاب إلى المجمع العلمي العربي في دمشق يقول في جملة منه تحقيقاً للمشروع الذي عهد لسلفه: (براجشتراسر): «ولقد نوينا تسهيلاً لمحبي الاطلاع أن ندون كل آية من القرآن الكريم في لوحة خاصة تحوي مختلف الرسم الذي وقفنا عليه في مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التي عثرنا عليها في المتون المتنوعة؛ ومتبوعة بالتفسير العديدة التي ظهرت على مدى العصور وتوالي القرون^(٢).

وحيثما انجلت المهمة عن طبع العديد من الآثار القرآنية لعلماء العرب والمسلمين لم يكتف بريتلز عند هذا الحد بل أتحنفا برسالة فريدة «في تاريخ علم القرآن باللغة الألمانية وهي تحتوي على أسماء المؤلفات

(١) ظ: فيما سبق: التحقيق والفهرسة والتدوين.

(٢) الزنجاني، تاريخ القرآن: ١٢.

في علم القرآن الموجودة في الآفاق ودور الكتب في العالم^(١).

وغير غريب بعد هذا أن نشاهد تحقيق: أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي، والكشاف للزمخشري، والاتقان للسيوطي وكتاب المصاحف للسجستاني، ومقدمتان في علوم القرآن على أيدي مستشرقين آخرين، وهي كتب مهمة في التفسير وعلوم القرآن، نشداناً لتوثيق هذه النصوص الثمينة. وقد سبق أن سردنا عشرات الكتب المحققة في موضوعها من البحث ولا حاجة إلى إعادة ذكرها.

ومع نفاسة هذه النوعية من الجهود، إلا أننا نقف معجبين بما أسداه المستشرق الألماني الأستاذ (جوستاف فلوجل ١٨٠٢ م - ١٨٧٠ م) حينما ألف أول معجم مفهرس للقرآن في اللغة العربية، عني بألفاظ القرآن ومفرداته وأسماءه: (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) وطبع لأول مرة في ليزك (١٨٤٢ م).

وهو عمل إحصائي أبجدي دقي اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في موضوع (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).

وقد استفاد المستشرق الألماني مالير (١٨٥٧ م - ١٩٤٥ م) من عمل فلوجل فألف في ضوئه (دليل القرآن) وزاد عليه أن اشتمل على حروف الجر والعطف وأضرابها، وطبع للمرة الثانية في باريس ١٩٢٥ م.

وإن عجبنا بما حققه فلوجل ومالير فهو ليس بأقل من عجبنا بما قام به المستشرق الفرنسي (جول لابوم) حينما وضع (تفصيل آيات القرآن الكريم) باللغة الفرنسية، وذلك بترتيب الآيات الخاصة بالموضوع الواحد في فصل واحد، فصنف القرآن نجوماً بحسب موضوعاته ثم جمعها موضوعاً فكان عمله هذا فريداً وإن لم يكن شاملاً لموضوعات القرآن كافة، أو لم يستوعب آيات كل موضوع إلى جانبه، بل ندد عنه النزر حيناً، والكثير حيناً آخر.

(١) المرجع نفسه: ١٣.

وفي هذا الاتجاه نجد المستشرق الأمريكي : تشارلز توارى (المولود ١٨٦٣ م) ينشر بحثاً قيماً عن مفردات القرآن في مجلة عالم الإسلام، (١٩٣٩ م)، أفاد به كثيراً مما حققه الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) في المفردات في غريب القرآن.

ولقد قام المستشرق الانكليزي ستوري (المولود ١٨٨٨ م) بوضع فهرس إحصائي دقيق بأدب القرآن لمكتبة ديوان الهند في لندن في (٤٥ صفحة) وطبع في كمبردج (عام ١٩٣٠ م).

أما بحث الأستاذ (براجشتراسر) الذي رُقي به إلى مرتبة الأستاذية (عام ١٩١٢ م) فقد كان عبارة عن معجم إحصائي لقراء القرآن الكريم مع تراجمهم. وهو نوع من التوثيق والضبط قاربه المستشرق الألماني (هوسلايتر) حينما وضع فهرساً لتفسير الطبري^(١).

ولقد كانت العناية بالتوثيق، والدقة في رصد أبعاده متناهية حينما نشر المستشرق الأمريكي (كومارازوامي ١٨٧٧ م - ١٩٤٧ م) موضوعاً قيماً بعنوان (صحائف القرآن)، تجده في نشرة المتحف الفني في بوسطن، ١٩٢٠ م. حقق فيه عدد صحائف القرآن الكريم^(٢).

وقد قدمت المستشركة الروسية (فيراتشكوفسكايا ولدت ١٨٨٤ م) بحثاً أصيلاً عن نوادير مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي أثنى عليه كثيراً الأستاذ أمين الخولي في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين^(٣).

ولقد شاء المستشرقون أن يفهموا النصوص القرآنية عن كثب، فعمدوا إلى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات العالمية الحية، فكانت الترجمات اللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية والانكليزية والسويدية والهولندية والهندية وغيرها، مشتملة على جهود مضية قاسى منها المستشرقون متاعب

(١) ظ: فيما سبق: الفصل الثالث، الفهرسة: فقرة رقم ٢.

(٢) ظ: فيما سبق: الفصل الثالث، التدوين.

(٣) ظ: أمين الخولي، مجلة الشبان المسلمين، عدد ديسمبر.

جسيمة لا يطبقها الكثير من الباحثين المسلمين، إذ ليس أمراً يسيراً أن يتفرغ فرد أو جماعات لغتهم الأم غير العربية إلى ترجمة نص عربي فريد، يكمن في تعبيره الحس الاستعماري إلى جنب البعد التشبيهي، والتعبير المجازي بسوية الإرادة الحقيقية من القول، هذا مضافاً إلى تداخل الأشباه والنظائر والمترادفات في الألفاظ، ووجود التضاد والاشتراك في المادة الواحدة. مما يعني تمرساً دقيقاً في فنون القول، وعناء شاقاً في اضطلاع اللغة والبيان ودلالة الألفاظ.

وقد كانت هذه الجهود المتقدمة مجتمعة سبيلاً إلى توثيق نصوص القرآن ومعاينتها بمنظور عصري متميز من ينابيعها الأولى.

٣ - استقراء المجهول:

ولا شك أن هدفاً أساسياً يحدو بالمستشرقين إلى خوض عباب القرآن، والغوص في أعماق كنوزه، ألا وهو استقراء المجهول، واستكشاف الحقائق، ولا يكون هذا الملحظ إلا علمياً أصابوا الهدف أم أخطأوه. وقد كان مضمار هذا الارتياح السابق إلى المعرفة، بالتأكيد على الجزئيات الأولية، التي تمهد في الوصول للكليات الرئيسية، فكان عملهم كالمقدمات الضرورية التي تنتهي إلى نتائج ضرورية، فيما يقدرون لا فيما نقدر، إذ قد نوافقهم حيناً ونختلف معهم حيناً آخر فيما قرروا من استنتاج.

ومهما يكن من أمر، فقد سلكوا إلى تحقيق هذه الخطوة اتجاهاً عملياً أصيلاً بالتأكيد على دراسة القرآن موضوعاً، موضوعاً، ولم يتناولوا بطبيعة الحال كل موضوعات القرآن، بل اكتفوا ببعض منها، مما يسهل بحثه، أو تتوافر مصادره، أو يخلص إلى حصيلة مثمرة، والحق أن هذا الاتجاه يعني الاستقصاء والاستيعاب الشامل، ويتطلب القيام بعملية إحصائية في ذات الموضوع المراد بحثه. ومع أن الشك يخامرنا في قدرة جملة المستشرقين على تحقيق هذا الغرض، إلا أننا لمسنا مقدرة فائقة أحياناً عند الطبقة الممتازة منهم، ممن بدا على بحوثه سيماء الصبر والأناة والتحفز، فالمشقة الدراسات الاستقرائية تضني الباحثين، وقد لا يحققون قدراً يعتد به من النجاح إلا بعد سنين من التمحيص وعناء الاستنباط.

ولقد كان في إصدار الأحكام مصاحباً لجمهرة من الباحثين بعض الأحيان، والارتجال دَيْدُنًا للبعض الآخر منهم، وهذا نتيجة طبيعية لأمزجة المستشرقين المتأرجحة بين السطحية والموضوعية، ومع هذا فقد تجنبنا الاسفاف فيما قدمنا لهم من بحوث قد يكون البعض منها مرضياً والآخر متهافتاً، ولا يعني هذا الغض من المنزلة العلمية من جهة، أو إسدال الستار على الأخطاء من جهة ثانية، فكان كل على سبيله.

لقد لمسنا في الفصل الخاص عن الدراسات الموضوعية التي بحثها المستشرقون جهداً لا ينتقص، ومثابرة لا تجحد، ففي مجال العقائد والديانات وضعنا أيدينا على بحوث قيمة في التشريع القرآني، والمقارنة بين القرآن والكتب السماوية، والعلاقات العامة بين الديانات وكان أبرز من أكد على هذا الجانب المستشرق الهولندي (فث ١٨١٤ م - ١٨٩٥ م) إذ واكب حديثه عن ذلك في خمسة بحوث تتعلق بالرسول الأعظم والقرآن الكريم، وقد نشرها تباعاً في مجلة الدليل الهولندية.

وقد كشف المستشرق الألماني الأستاذ (بوشتارك) عن العلاقة بين الإسلام واليهودية والنصرانية في أبحاث قيمة^(١).

وكان التأكيد على علاقة الإسلام بالمسيحية مثار بحوث متعددة عند ولكر وأرنس وبوركهارت وريتشارد بل^(٢).

ومن الطريف حقاً أن يرى (يوزف كورت زولفرنك) إشارات إلى صيغ تشريعية عربية قديمة في القرآن، وأن يكشف (اليونوره هونز) عن إشارات قرآنية إلى الثقافة المادية للعرب القدماء، وأن يتحدث (فان جنيب) عن إبراهيم عليه السلام في القرآن حديثاً أكاديمياً راقياً^(٣).

وفي الحديث عن الفن القصصي في القرآن المشتمل على بيان الأحوال والطقوس والمفارقات للأمم الماضية، وأهداف القصص الديني

(١) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع: فقرة رقم ٥.

(٢) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، الفقرات: ٨، ١٣، ١٦.

(٣) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، الفقرات: ٩، ١٠، ١٢.

واختلافه عن القصص الدنيوي أدركنا المستشرق الألماني (هورفيتش) يبدي كثيراً من الملاحظات الدقيقة والمعلومات الصائبة في معالجة النصوص القصصية في القرآن الكريم، ويكشف عن الجانب التاريخي لقصص الأنبياء والأولياء والصالحين وعلاقة ذلك كله بمبدأ النبوة في القرآن.

وغير غريب أن نلمس الجانب الصوفي والمناخ الروحي في قصص الهجادة في القرآن، ومصادر القصص الإسلامية وقصص الأنبياء في القرآن، وقصص أهل الكتاب، وأهل الكهف في القرآن، وعناصر هذه القصص ورجالها وأدوارها^(١).

ولقد كانت الموضوعية أكثر شيوعاً في الأبحاث اللغوية الأصلية، وقد كشف الأستاذ (فرانكيل) في رسالته للدكتوراه (الكلمات الأجنبية في القرآن) عمقاً جديداً في مراحل فقه اللغة العربية، وأثر القرآن الكريم في تطوير المفهوم اللغوي منذ مراحل الأولى، وقد جدد هذا الفهم الأستاذ (كاله) في بحثه القرآن والعربية، و (بيكر) في قواعد لغة القرآن في دراسات (نولدكه).

وكان لبلاغة القرآن نصيبها المحدود في دراسات المستشرقين ومما ينوه به ما بحثه الأستاذ (بول) في التشبيه والتمثيل في القرآن، (ربسون) في الإعجاز في القرآن، و (ستانتون) في بيان القرآن، و (كريستنس) في سحر الآيات القرآنية^(٢).

وفيما عدا هذه الأبواب، لاحظنا عن كثب جمهرة لا يستهان بها من الدراسات المتنوعة لعدة جوانب من القرآن في كتابته، وتدوينه، وروايته، وجمعه، وفواصله، ومصادره، ومنتخباته، وتفسيره، ومتشابهه، وقوانينه، وتلاوته، وقراءته، ولهجاته، . . . إلخ.

ان نقد هذه الدراسات وتقويمها، يحتاج إلى توافر على مصادرها ومراجعتها، وهي بلغات متعددة، ولا يتيسر أغلبها إلا في جامعات الغرب

(١) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع: الفن القصصي.

(٢) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع: بلاغة القرآن.

ومكتباته، وما أفدنا منه كان نتيجة إمعان في بعضها، وقراءة عن البعض الآخر، ورواية لا ندري نصيبها من الصحة، إلا أننا على العموم نكاد نقطع أن هذه الدراسات والقيم منها بخاصة قد شارك مشاركة فاعلة في إرساء صرح الحضارة القرآنية، وأبان عن خباياها الثمينة، وكشف عن وجهها الناصع.

لقد لمسنا فيما مضى دقة ومرونة، دقة في الاستقراء، ومرونة في الاستنباط والذي يعنينا بيانه: هو الجدية في العمل عند هؤلاء المستشرقين، والمثابرة والصبر على البحث الصادق، مما يدعوننا إلى القول بعظيم ما حققوه من إنجاز، وكبير ما قدموه من عطاء.

المحاضرة السابعة:

تقويم الجهود الإستشرافية في الدراسات

القرآنية

(١)

تعريف الاستشراق

الاستشراق بتعبير موجز: دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتاريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه، وعلومه، وتقاليده وعاداته^(١).

وإذا كان الاستشراق يستقطب هذه الصيغة، فالمستشرق - بهذا الاعتبار - هو الغربي الذي يدرس تراث الشرق، وكل ما يتعلق بتاريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه وعلومه وتقاليده، وعاداته.

ولا بدّ لدراسة هذا التراث من أداة توصله إلى ثماره المنشودة وهذه الأداة التي يجب أن يتحصّن بها المستشرق: هي اتقان لغة الشرق، والتخصّص بأبرزها آثاراً في التاريخ والفنون والآداب والعلوم، وهي اللغة العربية لا ريب.

لهذا يرى المستشرق الألماني المعاصر «ألبرت ديتريش» أن المستشرق: هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق^(٢).

ومصطلح الاستشراق يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة، أي إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط كما قيل يقع في

(١) ظ: جبور عبد النور:

المعجم الأدبي ١٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩ م.

(٢) ظ: ألبرت ديتريش:

الدراسات العربية في ألمانيا، تطوّرها التاريخي ووضعها الحالي ٧، جوتنجن / ١٩٦٢ م.

وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تتحدّد بالنسبة إليه. فلمّا انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق رغم ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط^(١).

ويبدو أن مصطلح الشرق لم يقتصر على هذه الرقعة جغرافياً فحسب، بل تجاوزها إلى غرب الجزيرة العربية، وشمال إفريقيا، وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، فعَدّت كل من مِصر والمغرب وشمال أفريقيا وما تعرّب من سكان هذه الدول من الشرق، فشمّلها هذا الاسم باعتبار دينها الإسلام، ولغتها العربية.

وكما تخطّى مصطلح الشرق حدوده الجغرافية إلى غرب الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، فقد تخطّى مصطلح الاستشراق الغربيين، وتجاوزهم إلى المستعربين بعامة، ممن لم يعتنقوا الإسلام ديناً، ولم ينطقوا بالعربية لغةً، وكان من شأنهم أن بحثوا في تراث الشرق لغة وأدباً، وإن كانوا شرقيين، فشمّلهم هذا التعبير، وغمرهم هذا المصطلح، فعادوا مستشرقين. وفي ضوء ذلك يصحّ لنا إطلاق الاستشراق الروسي على المعنيين بالشؤون المشار إليها من قضايا الشرق الثقافية، وهكذا يقال الاستشراق الياباني أو الاستشراق الصيني. كما يقال الاستشراق الأمريكي أو الانكليزي جنباً إلى جنب.

لقد عاد الإسلام واللغة العربية مادة خصبة لموضوع الاستشراق، وطغت هذه المادة على ما سواها، ولقد قدّر للقرآن الكريم أن يحتضن الإسلام واللغة العربية بوقت واحد، حتى أضحي القرآن أغنى المواضيع عند المستشرقين على الإطلاق، فبحثوا جزئياته وكتلياته، وانصبت بحوثهم الأكاديمية حوله بشكل يلفت النظر، ويستوقف الباحث.

(١) ظ: دودي بارت:

الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ١١، ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م.

(٢)

دوافع الاستشراق

للاستشراق بوجه عام من خلال دراساته العربية والإسلامية دوافع متفاوتة شدة وضعفاً، اتسم بعضها بهدف تبشيري، واتجه البعض الآخر منها بغرض استعماري، وخلص القسم الثالث باتجاه علمي، فشكلت بذلك دوافع تبشيرية، ودوافع استعمارية، ودوافع علمية، وسنلقى على هذه الدوافع بعض الضوء الكاشف لنخلص إلى الحقيقة المجردة.

أ - الدوافع التبشيرية:

ذهب «رودي بارت» إلى أن الهدف الرئيسي من جهود المستشرقين في بدايات الاستشراق في القرن الثاني عشر الميلادي وفي القرون التالية له: هو التبشير، وعرفه بأنه: إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي، ويمكن الاطلاع على هذا الموضوع في الكتاب الكبير الذي وضعه: «نورمن دانيل» باسم: الإسلام والغرب (١٩٦٠ م)^(١).

وقد أكد تُهم المستشرقين التبشيرية الأستاذ «محمد البهي» بكتاب أسماه «المبشرون والمستشرقون» في موقفهم من الإسلام وقد ناقشه فيه وردّ عليه الدكتور «محمد يحيى الهاشمي»، الذي فنّد أغلب النوايا الهامشية للاستشراق^(٢).

(١) المصدر نفسه: ٩.

(٢) ظ: Die welt des Islams, N. s. 8. 1962 - 1963

إننا لا نستطيع أن ننفي هذه التهم جملة وتفصيلاً، فلهذه التهم أصل من الصحة، ولا يمكننا أن نزيّف جميع الجهود الاستشراقية ونصمها بالتبشير ففي هذا بعض الغلو والتطرف، ولكننا نستطيع أن ننزه قسماً ونتهم قسماً آخر. فالمستشرقون بشر، والبشر فيه الموضوعي وفيه السطحي، والمستشرقون مجتهدون، وقد يخطئ المجتهد وقد يصيب.

يلحظ أن جماعة من المستشرقين قد دأبوا منذ زمن حتى عصرنا الحاضر على وصف القرآن بأنه نسيج من السخافات، وبأن الإسلام مجموعة من البدع، وبأن المسلمين وحوش، وكان نموذج ذلك من المشتريين: «نيكولا دكيز، وفيفش، وفراتشي، وهوتنجر، ويلياندر، وبريدو»، وغيرهم^(١).

وهذا النوع من المستشرقين قد دفع تبشيراً إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام، لتقليل أهميتهما وزعزعة النفوس عنهما، وإسدال ظلال كثيفة قاتمة حول التاريخ الإسلامي لخدع البسطاء والمترددين، تبعاً لهوى في نفوس القوم. ولكن الحديث المتأطر بهذا القناع لا يمكن أن يوافق قبولاً لدى الباحثين لأنه حديث عاطفي.

وقد عمد قسم من المستشرقين الألمان واليهود أمثال، «فيل، وجولد سهير، وبول»، وغيرهم إلى القول بأن القرآن حرّف ويُدلّ بعد وفاة النبي ﷺ وفي صدر الإسلام الأول، وأن النبي ﷺ كان يصاب بالصرع! وأن ما كان يسميه الوحي الذي ينزل عليه إنّما كان أثراً لنوبات الصرع! فكان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج من فيه الرغوة، فإذا أفاق من نوبته ذكر أنّه أوحى إليه، وتلا على المؤمنين ما يزعم أنه من وحي ربه^(٢).

(١) ظ: الدكتور بكري أمين

التعبير الفني في القرآن: ١٨، دار الشروق / بيروت / ١٩٧٢ م.

(٢) ظ: Emile Der meng hem,

وقد تكفل بالردّ على هذه المزاعم الكاذبة جملة من المستشرقين المنصفين لا سيما «السير وليام موير» في كتاب «حياة محمّد»: فكان ما تحدث فيه عن منزلة القرآن ودقّة وصوله سالماً، خير ردّ على التجنّي والحدق الأعمى، واعتبر ذلك تهرباً عن البحث العلمي الرّصين.

وعقّب على ظاهرة الوحي، فنفى ما افتراه الجاهلون على النبي ﷺ من حالات الصرع المدعاة، لأن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام العطل^(١).

وهذا ما نشاهده عياناً في حالات الإغماء وقد أيّد كل من «الأب هنري لامنس»، و«فون هامر» مذهب «موير» في التفريق بين حالة الصرع والوحي^(٢).

بينما زعم آخرون: بأن النبي ﷺ كان في القرآن ساحراً، وأنه لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابويّة فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه^(٣).

وقد هزّ هذا التحدي السافر المستشرق «أميل درمنجهام»، ففند أباطيل هؤلاء الدعاة وحمل عليهم، ورد هذه التهم الرخيصة التي خالفت الواقع^(٤).

وبذلك أدين المستشرقون المتطرّفون بقم المستشرقين المنصفين.

إن كثيراً من الصيغ التي نهجها بعض المستشرقين لم تتسم بصفة

(١) ظ : Sir William Muir

Life of Mohammad. PP. 14 - 29

(Form original sources).

Ed inburgh, John Grant. 1912.

(٢) ظ : الدكتور بكري أمين :

التعبير الفني في القرآن : ١٩.

(٣) ظ : موسوعة لاروس الفرنسية، مادة محمّد :

Renawlte et Francisk. Mahomet, Paris, 183.

(٤) ظ : اميل درمنجهام، المرجع السابق : ١٣٥.

البحث العلمي، لهذا ردت من قبل مستشرقين آخرين، لأنها لم تدعم بدليل نصي أو تاريخي أو واقع اجتماعي مدروس، سوى الميل إلى الهوى والجنوح إلى العاطفة، وهذا ما يؤسف له حقاً.

ب - الدوافع الاستعمارية:

وقد يكون دافع الاستشراق دافعاً استعماريّاً تملّيه طبيعة عمل المستشرقين في البلدان العربية والإسلامية، من ضرورة إتقان اللغة، والتخصص بجملة من فنون الشرق، ومن ثم يتولد لدى المستشرق ولع خاص يحدو به إلى الاضطلاع بمهامه، ولكنه لا يخضع هذا الولع على سجيته، بل يخضعه لمفاهيم استعمارية قد خطط لها من ذي قبل، كأن يشكك المسلمين بعقيدتهم، أو يسفّه أحلامهم، أو ينحو باللائمة على أئمتهم، أو يقلل من أهمية تراثهم.

وقد لا تملّي هذا طبيعة العمل بل يكون هو الهدف الأول والأخير للاستعمار من عمل المستشرق في هذا المحيط أو ذاك.

ومن هنا قد يكون المنهج الاستعماري فاضحاً للاستشراق بالطريقة التي برمّجها للمستشرق من تشتيت أمر الأمة، والدعوة إلى تفريق الكلمة، وإبراز وجهات الاختلاف، أو تعدد المذاهب، فيدعى المستشرق من قبل دوائره إلى تضخيم هذه النزعات، وتكثيف تلك الدعاوى، فيبث سمومه من خلال هذه الثغرات، ويمثل الإسلام بأنه: دين فرقة وخصومة وتصدع، والأغلب أن يضيف من عنديّاته ما لم يكن، فيصور ما لم يحدث، ويناقد ما لم يقع. لا سيما إذا كانت كتابته تتعلق بدين أو تراث أو تاريخ تخطيط للبلدان، أو تصوير للاجتماع، أو دراسة نفسية لطبيعة الشعوب المستعمرة.

فعلى سبيل المثال: كان «كرستيان سنوك هورجرونية» (١٨٥٧ م - ١٩٣٦ م) رجلاً يعتمد على خبرته العلمية بالشرق، وقد قام في رسالته - (العيد المكي - ١٨٨٠ م) تلك التي لم تفقد قيمتها إلى اليوم - بفحص ناقد للتصريحات القرآنية الخاصة بإبراهيم عليه السلام، واعتباره الأب الأول للإسلام ومنشئ الكعبة، وقد أقام - استعداداً للعمل في خدمة الاستعمار - نصف عام متخفياً في ١٨٨٥ م بين المسلمين في مكة، وأنجز كتاباً عن مكة خدمة

لمهمته الاستعمارية الهولندية الهندية^(١).

وقد أغدقت الدول الاستعمارية على جملة من المستشرقين بمختلف الامدادات حتى شكل ذلك دافعاً اقتصادياً لدى البعض منهم، أو مكسباً شخصياً أو سياسياً يحقق للبعض مطمحا أو مطمعا أو منصباً، ويمكن أن يندرج ضمن الدافع الاستعماري، أو من جملة مرجحاته ومقتضياته، أو من طبيعة مستلزماته ومغرياته.

يقول الأستاذ نجيب العقيقي: «فلما أرادت معظم دول الغرب عقد الصلات السياسية بدول الشرق والاعتراف من تراثه، والانتفاع بثرائه، والتزاحم على استعمارها، أحسنت كل دولة إلى مستشرقها فضمهم ملوكها إلى حاشياتهم أمناء أسرار وتراجمة، وانتدبوهم للعمل في سلكي الجيش والدبلوماسية إلى بلدان الشرق، وولوهم كراسي اللغات الشرقية في كبرى الجامعات والمدارس الخاصة، والمكتبات العامة، والمطابع الوطنية، وأجزلوا عطاءهم في الحل والترحال، ومنحوهم ألقاب الشرف وعضوية الجامعات العلمية»^(٢).

وقد يكون الدافع الاقتصادي الذي أوجده الجهد الاستعماري مرتبطاً بالهدف العلمي باعتبار الاستشراق مهنة عملية يوظف لها الاكفاء والمتخصصون، «فأساتذة اللغات الشرقية في العصر الوسيط وتراجمته عملوا لقاء أجر، وأوائل المستشرقين وعلماء الجدل والموسرون نالوا جزاءهم بإرساء النهضة الأوروبية على التراث العربي»^(٣).

ج - الدوافع العلمية:

ويبدو لي من خلال معايشة الحركة الاستشراقية بوجه عام أن الهدف العلمي من وراء دراسة القرآن الكريم والتراث العربي قد يشكل أسلم

(١) ظ: رودى بارت، المرجع السابق: ٣١.

(٢) نجيب العقيقي:

المستشرقون: ١١٤٩، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤ / م ١٩٦٥ م.

(٣) المرجع نفسه: ١١٤٨.

الدوافع وأنبل الأهداف ترجيحاً لدي، فكثير من هؤلاء المستشرقين لمسوا في اللغة العربية لغة ثقافة وأدب وحضارة، ووجدوا القرآن في الذروة من هذه اللغة، فحذبوا على دراسته بدافع علمي محض تحذو به المعرفة، وتصاحبه اللذة، فأبقوا لنا جهوداً عظيمة مشكورة.

وهذا الحكم لا يؤخذ على عمومته، ولكنه الأعم الأغلب، وسواء شاذ، والشاذ لا يقاس عليه. ولكن الهدف العلمي - مهما كانت الضمائم - هو الهدف الأسمى لأغلبية هؤلاء المستشرقين.

ومن الجدير بالذكر أن معركة كبيرة تدور رحاها بين علمائنا وأدبائنا وبين المستشرقين حول صحة هذا الغرض أو التشكيك فيه، وقد عرض لها الأستاذ «نجيب العقيلي» وناقش كثيراً من أبعادها، ودافع عن المستشرقين دفاعاً مخلصاً، ورأى أن الاستشراق مهنة علمية حرة ترسى قواعدها على أصول التحقيق والترجمة والتصنيف^(١).

ومع كل ما تقدم، فالمفروض أن نقف موقف الحذر والحيطة من جملة جهود المستشرقين واجتهاداتهم بالنسبة للدراسات القرآنية، فهم يخضعون القرآن - عادةً - إلى مناهج وطرائق واستنتاجات قد تكون بعيدة عن الفهم القرآني الأصيل، لا سيما في مجالي التفسير والترجمة، فالتفسير مهما كان دقيقاً، قد لا يتوافر منه المراد في اللغات الأخرى كما يتوافر في اللغة العربية، والترجمة مهما كانت حرفية فقد تشذ عن الأصول البلاغية والأساليب الجمالية التي جاء بها القرآن الكريم.

وكما يجب أن نقف من التفسير والترجمة هذا الموقف، يجب أن نرصد ما كتب في تاريخ القرآن، ودعوى التحريف بمنظور متيقظ لثلاث نفع بما وقع به بعض المستشرقين من الإسفاف والخلط.

إن هذا الملحظ لا يعني أننا نغض من قيمة وأصالة الجهود الاستشراقية، ولكننا ندعو إلى تقويمها ورصدها للوصول إلى الحقيقة العلمية الخالصة.

(١) ظ: المرجع نفسه: ١١٤٨ - ١١٦٦.